من أحاديث النَّبي -ﷺ- عن الدنيا

دراسة بلاغية تحليلية

إعداد الدكتور

علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بجامعة الأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحاديث النبي -ﷺ- عن الدنيا دراسة بلاغية تحليلية

علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

تخصص البلاغة والنقد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: Aliibrahim1591.el@azhar.edu.eg

الملخـــص:

في هذا البحث أتناول جملة من أحاديث النبي -ﷺ- عن الدنيا، وقد هدفت الدراســة إلى إبراز ما اشتملت عليه هذه الأحاديث من خصائص أسلوبية، وما حوته من أسرار بلاغية، وما تضمنته من معان سامية من شأنها الارتقاء بالإنسان والنهوض بالإنسانية.

واعتمدت في هذه الدراســة على المنهج التحليلي، وذلك بتحليل المفردات والتراكيب، والوقوف مع الأدوات والأساليب، وبيان أثرها في بلاغة العبارة، ودورها في رسم الصورة وإيضاح المعنى.

وكان من أهم النتائج التي توصــل إليها البحث أن النبي -ﷺ- اعتمد أكثر ما اعتمد في هذه الأحاديث على ضرب الأمثال، بما تمتاز به من إيضاح الغامضات، وكشف المبهَمَات، وبما لها من أثر في تقرير المعنى في نفوس الســامعين. كما أنه -ﷺ- لم يكن يلقي الخبر مباشــرة، بل يهيئ الأذهان باســتعمال بعض الأدوات التي تلفت الانتباه، وتحفز العقول للإصغاء، كالاستفهام، والنداء، والقسم، والتأكيد، والاســتفتاح بألا، والتكرار، إلى غير ذلك من الوســائل والأســاليب، كذا لم يعتمد النبي -ﷺ- في هذه الأحاديث على طريقة التلقين وإلقاء المعلومات المباشرة للمتلقي، وإنما اعتمد على أسلوب الحوار والتداولية في الحديث، فصــار بذلك الخطاب مشــاركة بينه وبين ســامعيه، ولا شــك أن لذلك أثره في استمالة المخاطب وإقناعه.

الكلمات المفتاحية: أحاديث النبي. الدنيا. بلاغة.

Some Traditions of
Prophet Muhammad (Peace be upon him) about worldly Life
An analytical and Rhetorical Study

By: Ali Abdel- Kareem Mabrouk Ibrahim
Majored in Rhetoric and Criticism
Department of Arabic Language and Literature
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

This research demonstrates a group of Prophet Muhammad's (peace be upon him) traditions about worldly life. The research aims at uncovering what those traditions contain regarding stylistic characteristics, rhetorical secrets and lofty meanings that would contribute to the development of mankind and improve human life. The research relies on the analytical approach to analyze the words, structures and specify the tools and styles highlighting their impact upon the rhetoric of the statement as their role in delineating the image and clarifying the meaning. One of the findings of this research is that Prophet Muhammad (Peace be upon him) relied mostly, in these prophetic traditions, upon giving examples, as a technique, because it is characterized by clarifying mysteries disambiguating the ambiguous considering its influence on the audience through deciding the meaning. In addition, Prophet Muhammad (Peace be upon him) did not use to tell news directly but he used to prepare the minds using some tools to attract attention and motivate the minds to listen, utilizing various styles such as interrogation, appeal, swearing, assurance, beginning with verily, repetition and other tools or styles. Moreover, in these traditions, Prophet Muhammad (Peace be upon him) did not rely on indoctrination or reciting information directly to the audience but he utilized the styles of dialogue and speech pragmatics so that the discourse is shared by his audience, and this undoubtedly has its impact upon involving the addressee and persuading him.

Key words: traditions of Prophet Muhammad (Peace be upon him), worldly life, rhetoric.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله على ما أنعم به علينا من نعم، والصلاة والسلام على من آتاه الله جوامع الكلم، فكان بحقٍّ أفصحَ من أبان وأبلغَ من نطق، وشهد بفضله العرب والعجم، فبلاغته ظاهرةٌ للعيان، أقرَّ بها القاصي والدان، يكفيه فخرًا مدحُ الله له بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم/ ٣] فهو لا ينطق إلا بحقٍّ، ولا يصدر إلا عن حقٍّ، كلامه بعيدٌ عن التكلُّف، منزَّهٌ عن التعقيد والتشدُّق والتقعُّر، وكيف يكون في كلامه تعقيد أو تكلف؟! ومثل هذا يتنافى مع مهمته وهي الدعوة إلى الله، والتبليغ عن الله، وتلك المهمَّة الجليلة تحتاج أكثر ما تحتاج إلى بيانٍ لا غموض فيه، ولا تصنع أو تكلف يشينه ويضعفه.

فلم يكن-ﷺ- يتكلف القول، ولا يقصد إلى توشيته وتزيينه، ولا يبغي إليه وسيلةً من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ولا يجعل المعاني تبعًا للألفاظ، وإنَّما يجمع في كلامه بين جلال المعنى وجمال اللفظ (١).

ورحم الله الجاحظ إذ يقول متحدثًا عن بلاغته -ﷺ-: " فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبَّة، وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلَّةِ عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلَّة حاجة السامع إلى معاودته" (٢).

وفي هذا البحث أتناول جملةً من أحاديثه-ﷺ- عن الدنيا، ويرجع السبب في اختياري لهذا الموضوع إلى ما يأتي:

أولًا: شرف الانتساب إلى السُّنَّة النبويَّة المطهرة؛ بمدارستها، والاغتراف من فيض معينها، والارتشاف من عذب كوثرها الذي يروي كل ظامئ، والاهتداء بنور مشكاتها الذي يرشد كل حائر،

(١) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:٩/ ١٣٩٣هـ.١٩٧٣م. ص٢٨٢.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣هـ. جـ٢/ ١٣.

وإنَّه لشرف لأي بحثٍ وباحثٍ أن يُستعمل في خدمةِ كتاب الله -تعالى- وسُنَّة نبيه-ﷺ-باستخراج شيءٍ من دقائقهما، والوقوفِ على شيءٍ من لطائفهما ومعارفهما.

ثانيًا: أنَّ أحاديثه-ﷺ-عن الدنيا فيها تعليمٌ وإرشادٌ ليدرك العبدُ حقيقتها، ومدى خطرها، فلا تصرفه عما هو مقبلٌ عليه، ولا تشغله عما هو راحلٌ إليه، إذ ليست الدنيا إلا معبر موصل للآخرة، فالسعيد من قدَّر الأمور قدرها، ووضع الأشياء في نصابها، فلم ينس من الدنيا نصيبه، ولم يُصب منها ما يُثقل كاهله ويعوقه عن الوصول إلى غايته من رضوان الله ورحمته، فآثرت دراسة هذه الأحاديث؛ عسى أن يكون للقلب بها اعتبارٌ، وللنفس فيها عظةٌ، فتدرك ما فاتها، وتندم على سوء فعلها.

ثالثًا: أنَّ هذه الأحاديث غنيَّةٌ بالوسائل التعبيرية، والنكات البلاغية، والخصائص الأسلوبية، وغير ذلك من ألوان البيان، ما يدفع أي باحث ويغريه لدراستها، واستكناه بعض أسرارها، وسبر أغوارها، واستخراج شيء مما حوته من درر، وما أخفته من معان، ولكن هيهات أن يُكشف لمثلي اللثامُ، حيث أراني بعد كل محاولة قد ظهر لي من المعاني والأسرار ما لم يظهر في سابقتها، ساعتها أدركت أنَّ الغايةَ بعيدةٌ، والمرام صعب، وأنَّ الوصول إلى الأعماق لاستخراج كل الدرر من أصدافها، والمعاني من مكامنها مستبعدٌ عصيٌّ إن لم يكن ضربا من المحال، وأنت ترى كلا يأخذ منها ما رُزق، وما قدر الله له، وإنَّما للعبد ما رُزق، وصدق النَّبي إذ يقول: (إِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَخَازِنٌ وَاللهُ يُعْطِي)(١)

رابعًا: أنَّ الدراسة التطبيقية للبلاغة ولاسيما إذا كانت متصلة بمنابعها الأولى، التي منها استنبطت وارتوت حتى نمت وأورقت واستوت على سوقها، وتلك المنابع متمثلة في الوحيين الشريفين، والشعر العربي لا سيما في عصوره الأولى، أقول: إنَّ مثل هذه الدراسة لا شك تنمّي ملكة البيان والإبانة، وتصقل الذوق وترتقي به، وتشحذ العقل على حد تعبير الإمام عبد القاهر، وتجلي القريحة، وتزكي أورى الموهبة، فهي مع ما فيها من صعوبة ومكابدة؛ لأنَّ الكلام لا يعطيك شيئًا من أسراره فضلا عن أن يسلم لك قياده إلا بعد مشقة وعناء وقدح وكدح، لكن لذة الوصول تنسي المشقَّة والتَّعب، ومن هنا كان لزامًا

(١) رواه البخاري في صحيحه، بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ) دار طوق النجاة، ت: محمد زهير بن ناصر (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط:١/ ١٤٢٢هـ، جـ٤/ ٨٤.

على أي باحث أن يخوض غمار الدراسة التطبيقية، وليس عليه من حرج إن وقع في الخطأ، إنَّما الحرج في الإحجام خوفًا من الوقوع في الخطأ، ولذا لم يؤاخذنا الله فيما أخطأنا، ولكنَّه -تعالى- برحمته تجاوز عن النسيان والخطأ، وآخذ بما تعمدته القلوب وأصرت عليه.

وقد جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وخطته، وأسباب اختياري له.

وأما التمهيد فخصصته للحديث عن بعض سمات البيان النبوي في أحاديثه-ﷺ- عن الدنيا.

وأما المبحث الأول فجاء تحت عنوان: هوان الدنيا على الله.

وأما المبحث الثاني فعنوانه: الزهد في الدنيا سفينة النجاة.

وأما المبحث الثالث فعنوانه: تعس عبد باع دينه بدنياه.

وجاء المبحث الرابع تحت عنوان: والآخرة خير وأبقى.

والله أسأل أن يكتب القبول لهذا العمل، وأن يجنبنا الزيغ والزلل،

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

تمهيد

من سمات البيان النبوي في أحاديثه -ﷺ- عن الدنيا.

إنَّ للبلاغة النبوية سماتًا فريدةً، وخصائص مميزةً، وتلك الخصائص وهذه السمات جعلتها في مقدمة البيان البشري، وفي طليعة الفصاحة الإنسانية، وهذا القول ليس اعتباطًا، وليس نابعًا عن عاطفةٍ غير قائمةٍ على دليلٍ أو مؤيدةٍ ببرهان، وإنَّما النَّاظر في أحاديثه وخطبه-ﷺ- يجد الدليل على ذلك سهلا، والبرهان ميسورًا، فقد اختصت أحاديثه وخطبه بالإيجاز، ودقةِ الألفاظ، وسلاسةِ العبارة، ولُطفِ الإشارة، وجمالِ التعبير، وروعةِ التصوير، وجدةِ الصورة، وابتكارِ المعنى، ورقةِ اللفظ، ودفقِ الشعور، أضف إلى ذلك نفاذ المعنى واللفظ معًا إلى قلب السامع، وتحريكهما لفؤاده، وعملهما في نفسه، وتلك سمات لا يمكن لها أن تأتي مجتمعة مكتملة إلا فيما ندر، ولو تأتت لبليغ في بعض قوله، فإنَّه لا يمكن أن تنصاع له في سائر قوله، فما بالنا وأحاديث النَّبي-ﷺ- وسائر ما ورد عنه قد اجتمعت فيه تلك السمات، وطبع بهذا الطابع، الأمر الذي يقطع لا محالة بأنَّ هذه البلاغة وتلك الفصاحة إنَّما كانت بإلهامٍ وتوفيقٍ من الله تعالى.

ومن ثم فالحديث عن بلاغته-ﷺ- حديث عن البلاغة المؤيدة بالوحي والإلهام وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣] وقد قال المفسرون: الكتاب: القرآن، والحكمة: السُنَّة. وتلك الآية الكريمة كما بيَّنت أنَّ السُنَّة المطهرة بصفة عامة، والقولية منها بصفة خاصة لم تكن عن هوى منه-ﷺ- وإنَّما كانت بوحي من الله تعالى، فإنها بينت كذلك أنَّ الله تعالى هو من علمه وهداه وأرشده، والآيات والأحاديث في هذا الباب تُعجز محصيها.

والبيانُ النَّبوي الشريف عُني في جانب كبير منه بالتشريع، ومن المعلوم أنَّ العناية بهذه الجانب قد يُلقي بثقله على جمال اللفظ، ويقيد حركته، ويفقده حيويته، ولعلك ترى هذا الأمر جليًا في تلك النصوص الوضعية للقوانين والدساتير البشرية، لكن الذي يدعو للعجب، ويثير الدهشة، أنَّ ذلك البيان النَّبوي مع عنايته بهذا الجانب إلا أن ذلك لم يكن على حساب جمال اللفظ ورونق العبارة، بل إنه صاغ

تلك التشريعات في قالب من اللفظ بديع، فأتاح بذلك للعقول والنفوس تلقِّي تلك التشريعات وفهمها، واستساغتها وقبولها، ولو أخذنا في سرد الأحاديث التي اهتمت بجانب التشريع لربما صرفنا ذلك عما نحن بصدده، فتلك الأحاديث التي اهتمت بجانب التشريع تحتاج إلى إلقاء مزيد من الضوء على تلك السمة في بيانه -ﷺ- وتحتاج إلى دراسة مستقلة نركز فيها على التشريعات والقوالب اللفظية التي وضعت فيها، ومدى وفاء تلك الألفاظ بما قصدته من معان، والأمر الذي يشتد منه العجب وتحار فيه العقول أنَّه-ﷺ- صاغ تلك التشريعات في ألفاظ غاية الإيجاز، ثم إنك لا تجد في ألفاظه ما يدل على مكابدة أو مشقَّة ومعاناة، ولعل قائلا يقول: ربما كان-ﷺ- يهيِّئ أقواله ويتروى في إعدادها حتى تخرج في تلك الصورة اللائقة، وتظهر بهذا المظهر البديع، والجواب عن ذلك أنَّه-ﷺ- كثيرا ما كانت تفاجئه الأحداث، فيُلهم بالرَّد الكافي، والجواب الشَّافي، والقول القاطع، والحجَّة البالغة.

وإذا كانت تلك السمة قد بدت واضحة في أحاديثه التي عُنيت بجانب التشريع، فكيف بالأحاديث التي عُنيت بترويض النفوس، وترقيق القلوب؟! وكيف بأحاديث الرقاق والمواعظ؟ كأدعيته الشريفة، وخطبه ومواعظه البليغة، والتي من بينها أحاديثه عن الدنيا وما يكون من شأنها، وما ينبغي على العبد نحوها حتى يسلم من شرورها، وينجو من فتنها وأهوالها، وحتى يبرأ له دينه وعرضه، نسأل الله السلامة والتوفيق والرشاد!

وقد اتسمت أحاديثه -ﷺ- عن الدنيا بصفة خاصة بسمات عدة تمثلت في: غناها بوسائل التعبير التي من شأنها تقريب الصورة وإبراز المعنى، من نحو اعتمادها على ضرب المثل لتأكيد المعنى وتقريره، وتهيئة الأذهان باستعمال بعض الأدوات التي لها دور في تحفيز العقول، والاعتماد على أسلوب الحوار بما له من أثر ودور في عملية الإقناع، وترتيب الجمل فيما بينها ترتيبا دقيقًا، ونظمها نظمًا محكما، والحشد لأدوات التوكيد قصدا لانتزاع الشك وإزالة الريب، إلى غير ذلك من السمات التي ستظهر - بمشيئة الله تعالى - في ثنايا هذه الدراسة .

المبحث الأول

هوان الدنيا على الله تعالى

ورد عن النَّبي -ﷺ- الكثيرُ من الأحاديث التي بيَّن فيها هوان الدنيا على الله تبارك و تعالى، واعتمد النَّبي -ﷺ- أكثر ما اعتمد – في إظهار حقارة الدنيا وهوانها على الله- على ضرب المثل، بما يمتاز به من إيضاح الغامضات، وكشف المبهَمَات، وبما له من أثر في تقرير المعنى في نفوس السامعين؛ إذ الأمثال من أهم وأنجح الوسائل في نقل المعاني، والتعبير عن الخواطر، فمن خلالها يمكن تجسيد المعنوي في صورة محسوسة، وتشخيصه في صورة حية، وإبرازه في صورة واضحة لا غموض فيها ولا التباس، وتلك الأمثال بما لها من تلك الميزات لا شك تقع من نفس السامع موقعًا حسنا، وتنزل عنده منزلا كريما، فالأمثال بما تشتمل عليه من روعة في التصوير، وجمال في التعبير، تعد عاملا من عوامل جذب الانتباه، وتجديد النشاط، والمتأمل يجد أنَّ الأمثال قد حظيت بمكانة رفيعة في البيان العربي بصفة عامة، والبيان القرآني والبيان النبوي بصفة خاصة؛ باعتبارها وسيلة من وسائل الهداية والإرشاد والتعليم.

وإليك أيها القارئ الكريم جملة من الأحاديث التي أظهر النَّبي -ﷺ- من خلالها هوان الدنيا على الله، وحقارتها عنده سبحانه، حتى لا تتعلق بها القلوب، وتمتد إليها العيون، وتتطاول لها الأعناق، فمصيرها وإن طالت إلى زوال، وأمرها وإن عظم حقير، فكيف وهي في حقيقة أمرها قصيرة حقيرة ؟!

روى الإمام مسلم عَنْ جَابِرِ بن عبد اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(١)

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب " الزهد والرقائق" حديث رقم (٢٩٥٧) ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٤/ ٢٢٧٢.

ورواه ابن ماجة عن سهل بن سعد وزاد فيه " وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا» (١)

سياق الحديث والسبب في وروده

فسياق هذا الحديث الشريف يظهر لنا أنَّ سبب إيراد النَّبي -ﷺ- له، أنَّه -ﷺ- مر بالسوق، حيث انشغال الناس بالبيع والشراء، والتجارة والربح والخسارة، واللهو والترف وغيرها مما يكون في الأسواق من عوارض الدنيا ومتعها، انشغالا أخذ بلبهم ومجامع قلوبهم، فأراد النَّبي -ﷺ- أن يبين لهم حقيقة ما هم فيه، وما تكالبوا عليه، فوجد جديًا ميِّتًا مقطوعَ الأذنين، فقال: من يشتري مني هذا بدرهم؟، فتعجب القوم من صنيعه-ﷺ- فأنى لعاقل أن يشتري مثل هذا الجدي الميت المعيب؟، فقال-ﷺ- «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» أي ولو بغير مال، فقالوا: لا نحبه ولو كان حيًا لما فيه من عيبٍ، فكيف وهو ميت؟ وهنا يُصرِّح لهم النَّبي -ﷺ- بمراده فيقول: إنَّ الدنيا عند الله أهونُ من هذا الجدي الميت الأسكَّ الذي نفرتم منه ورغبتم عنه، وإذا كان الأمر كذلك، فما بالكم قد انشغلتم بها حتى سلبت عقولكم واستولت على قلوبكم، فلو نظرتم في حقيقة أمرها، وعلمتم منها ما أعلم، لأدركتم أنَّها أهون عند الله من هذا الجدي عليكم، بل إنَّها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، هذا هو جوهرها الذي خفي عليكم، وتلك حقيقتها التي غفلتم عنها.

والحديث مشحون بوسائل التعبير البلاغية، والأساليب البيانية، التي لها أبلغ الأثر في رسم الصورة، وإبراز المعنى، وإليك بيانها:

---

(١) رواه ابن ماجة في سـنـنه حديث رقم (٤١١٠) ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – البابي الحلبي، جـ٢/ ١٣٧٦ . ورواه الطبراني بهذه الزيادة في المعجم الكبير من حديث سهل بن سعيد، حديث رقم(٥٨٤٠) مكتبة ابن تيمية ،القاهرة، ط:٢، جـ٦/ ١٥٧ .

أسلوب التشويق وأثره في تثبيت المعنى في نفس المخاطب

وأول هذه الأساليب التي اعتمد عليها أسلوب أو طريقة التشويق، فلم يُلق لهم النَّبي -ﷺ- الخبرَ مباشرة، ولم يفصح لهم عن مراده من أول الأمر، فقد كان بإمكانه -ﷺ- - لما وجد منهم هذا الانشغال بالدنيا والتكالب عليها- أن يقول لهم: إنَّ الدنيا أهون عند الله من هذا الجدي الميت الأسك الذي ترونه ولا رغبة لأحدكم فيه، لكنَّه-ﷺ- بدأ بعرض هذا المشهد المتمثل في محاولته الحثيثة لبيع هذا الجدي الأسكّ الميّت، فلمّا لم يجد من بينهم مشتريًا؛ لانعدام منفعته، بل وبينوا السبب في إعراضهم عنه، عندئذٍ صرح لهم النَّبي-ﷺ- بمراده، وأبان عن مقصده وغرضه، وبذا تمكن المعنى في نفوسهم، وثبت في عقولهم؛ إذا المعاني إذا ما ألقيت بعد تشويق لا شك يكون لها من الأثر مالا يكون لو ألقيت مباشرة بلا تشويق أو توطئة أو تمهيد.

وفي هذا المعنى يقول الإمام عبد القاهر- رحمه الله- : "وجملةُ الأمر أنَّه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غُفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإِعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار" (١)

الاستفهام ودوره في تحفيز العقل وإثارة الذهن

وإلى جانب هذا التشويق، استعمل النَّبي-ﷺ- الاستفهام المفيد للتقرير، فقال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» وقَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» فهو -ﷺ- يعلم جوابهم، ويعلم أنَّهم لا رغبة لهم فيه، إلا أنَّه يريد انتزاع إقراراهم؛ لأنَّ إقرارهم بمضمون الاستفهام آكد في إثبات المعنى من إيراده بطريق الخبر، أضف إلى ذلك أنَّ هذا الاستفهام حقق نوعًا من التفاعل بين المتكلم والمخاطب، ذلك أنَّ النَّبي لما سألهم هذا السؤال استعدوا للجواب، ثم أجابوا عن السؤال الموجه إليهم، فحدث بذلك تجاوب بين المتكلم والمخاطب، وأصبح الحوار من طرفين لا من طرف واحد، وبذا يحدث الإقبال من المخاطب على المتكلم والإنصات لما يلقيه من خطاب، وهو-ﷺ- استطاع بهذا الاستفهام أن يُهيِّئ أذهانهم لما سيلقى

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ت/ محمود محمد شاكر- مطبعة المدني بالقاهرة، ط: ٣/ ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، ص١٣٢.

عليهم؛ ذلك أن طرح الأسئلة من شأنه إثارة الذهن وتحفيز العقل، فالاستفهام لا شك أتاح الفرصة لإعمال العقول والتدبر في الأمر والروية فيه، وإذا نحن تأملنا في هذا الحديث نجد أنَّ الاستفهام قد أدى غايته المنشودة ودوره المرجو، حيث تبادل القوم الحديث مع النَّبي -ﷺ- وأعملوا عقولهم للإجابة عن هذا الاستفهام، فقالوا: (مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟) وجوابهم هذا يظهر أنهم أجهدوا عقولهم، وقلَّبوا في الأمر نظرهم، علَّهم يجدون في هذا الجدي الميت منفعةً، فلما أضناهم التفكير، وعجزت عقولهم عن إيجاد أي وجه من وجوه النَّفع في هذا الجدي الذي يريد النَّبي -ﷺ- بيعه، أجابوا بالنفي، وواجهوا الاستفهام باستفهام مثله، فقالوا: (وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟) حتى يستكشفوا من النَّبي-ﷺ- أوجه المصلحة التي ربما تكون قد خفيت عنهم.

وهذا الاستفهام من النَّبي-ﷺ- يدل على شدَّة عنايته بالأمر، وتوافر رغبته على تحقيق المعنى وتقريره في النفس؛ ذلك أنَّ الاستفهام طلب، وليس يخفي أنَّ الطلب إنَّما يكون لما يهمك ويعنيك شأنه، لا لما وجوده وعدمه عندك سواء، ولما كان الاستفهام بهذه المنزلة كان له حق الصدارة ووجوب التقديم(١).

الإفصاح عن الغرض بعد تشويق المخاطب وتحفيز ذهنه

بعد هذا التشويق الجاذب للانتباه، والاستفهام المحفِّز للعقول، أفصح لهم النَّبي-ﷺ- عن مقصده، بعد أن طمحت نفوسهم، وتهيَّأت عقولهم لما سيخبرهم به، فقال: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ» وأكد لهم الخبر بالقسم واللام؛ لأنَّه رأى من أحوالهم ما يحتاج لهذ القسم وذلك التأكيد، فهم لما انصرفوا بكليتهم نحوها، وانشغلوا بها، وآثروها على غيرها، صاروا بمنزلة من ينكر هوانها، ويستبعد زوالها، ويؤمل البقاء فيها، ثم إنَّه -ﷺ- بالغ في التحقير من شأنها، والتهوين من أمرها، فلم يجعلها بمنزلة هذا الجدي الميت الأسك، بل جعلها أهون وأذل وأحقر منه، ليسلب من نفوسهم أي رغبة فيها أو ركون إليها، ففي تشبيه الدنيا بالجدي الأسك الميت، بل وجعلها أدنى منزلة منه، ما ينفر

(١) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م، جـ١/ ٣١٧.

النفوس منها، ويجعلها أكثر انصرافًا عنها وإقبالا على الآخرة، فإذا كان هذا شأنهم مع هذا الجدي الميت الأسك من الاشمئزاز منه، و عدم الرغبة فيه، فإنَّه ينبغي أن يكون هذا شأنهم مع الدنيا حيث تبين أنَّها أهون وأحط من ذلك الجدي الأسك.

ومعنى هوان الدنيا عليه تعالى: أنه لم يجعلها مقصودة لذاتها، بل جعلها سبيلا موصلا إلى ما هو المقصود لنفسه، ولم يجعلها دار إقامة ولا جزاء، وإنَّما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنَّه ملَّكها في الغالب الكفرة والجهال، وحماها الأنبياء والأولياء (١).

ثم عقب النَّبي -ﷺ- ذلك البيان ببيان أشدّ، وأردف هذا التصوير بتصوير أعمق، فصور الدنيا بصورة جناح البعوضة: لا وزن له يعرف، ولا قيمة له تذكر، بل إنَّه جعلها لا تعدل جناح البعوضة فقال: " وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا» والتشبيه هنا من قبيل تشبيه المعنوي بالمحسوس، فصور لهم تلك الدنيا بما فيها من متع وما تحويه من زخرف بجناح البعوضة، بجامع الهوان وانعدام النفع في كل.

والتشبيه يعد أكثر الأنواع البيانية جذبا للانتباه، إذ به يتم إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، و ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به، و ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، وبه إخراج ما لا قوّة له في الصفة على ما له قوة فيها(٢).

وإنَّما أراد النَّبي -ﷺ- بهذا التصوير وتلك الوسائل التي سبقت الإشارة إليها؛ أن يجلي لهم الأمر، ويكشف لهم عن حقيقة الدنيا، ويحذرهم من الافتنان بها، والانخداع لها، والانصراف إليها عن الآخرة، فإنَّهم لو وقعوا في شراكها، وانشغلوا بها عن آخرتهم؛ فقد خسروا بذلك الدنيا والآخرة، ومن ثم

---

(١) ينظر: المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية-ﷺ- من صحيح الإمام البخاري، لشمس الدين السفيري، ت: أحمد فتحي عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، جـ١/ ١٣٢.

(٢) ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، ت: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ، ص٢٤٠ وما بعدها.

فالواجب عليهم أن يعمروا دنياهم، ولا ينسوا أخراهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ . . . .﴾ [سورة القصص، الآية:٧٧]

وهذا البيان عقب البيان والتشبيه إثر التشبيه من أخص وظائف المعلم والمربي، وهي تهدف في الأساس إلى المزج بين العقل والوجدان واستخراج دوافع متكافئة منها، والنَّبي -ﷺ- الذي أوتي جوامع الكلم وهو الذي بعث هاديًا ومربيًا ومعلمًا، أوتي قدرة فائقة على تطويع المعاني المجردة للتمثيل والتقريب [١].

ومن أحاديثه -ﷺ- في هوان الدنيا ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن الضحاك بن سفيان الكلابي أنَّ رسول الله -ﷺ- قال له:" يَا ضَحَّاكُ مَا طَعَامُكَ؟ " قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اللَّحْمُ وَاللَّبَنُ، قَالَ: " ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟ " قَالَ: إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ، قَالَ: " فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضَرَبَ مَا يَخْرُجُ مِنْ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا " [٢].

وفي رواية (وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ) [٣].

وهذا الحديث – كما ترى– يُظهر الدنيا في مظهر مقزز تنفر منه الطباع السليمة، وتشمئز منه النفوس الشريفة، والحديث مشتمل على العديد من الأساليب البلاغية التي أسهمت بدور كبير، وبدا لها أثر بارز في الوصول إلى الغرض والإبانة عن المراد، فقد اشتمل على الأساليب الآتية:

---

(١) ينظر: في الحديث الشريف والبلاغة النبوية د/ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط:١/ ١٤٣٢هـ ٢٠١١م، ص٥٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم (١٥٧٤٧) ت: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، جـ٢٥/ ٢٤،٢٥. ورواه الطبراني في المعجم الكبير حديث رقم(٨١٣٨) جـ٨/ ٢٩٩.

(٣) جاءت هذه الزيادة في مسند الإمام أحمد من حديث أبي بن كعب حديث رقم(٢١٢٣٩) جـ٣٥/ ١٦١. وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي أيضًا باب " ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ اللهَ جَعَلَ مُتَعَقَّبَ طَعَامِ بن آدَمَ فِي الدُّنْيَا مَثَلًا لَهَا" حديث رقم (٧٠٢) تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ط:١/ ١٤٠٨ هـ١٩٨٨م، جـ٢/ ٤٧٦.

ولكل منها أثره الواضح وكل منها يحتاج إلى وقفة:

بدأ النَّبي -ﷺ- حديثه بتوجيه النداء إلى ذلك الصحابي الذي كان يرافقه، والنداء وإن كان موجهًا في ظاهر الأمر لذلك الصحابي إلا أنه ليس خاصًا به، بل هو نداء عام لكل مؤمن، بل لكل ذي عقل يفكر وقلب يعي، وبدأ النَّبي -ﷺ- بذلك النداء؛ لما له من أهمية في إيقاظ العقول وتنبيه الأذهان، فإنَّ النداء فيه دعوةٌ للإقبال، وحثٌ على الامتثال، لذا إذا ما ألقي انصرف المنادَى بكليته إلى المنادِي ليقف على فحوى النداء وما يتضمنه من أمر أو نهي أو نصيحة أو إرشاد.

وقد نبه على ذلك الإمام الرازي عند تفسيره للحروف المقطعة في فواتح سورة العنكبوت، فذكر أن الخطاب إذا وجه إلى من يكون محل غفلة أو مشغول البال، فإنَّ المتكلم يقدم على المقصود شيئًا ليلفت المخاطب إليه بسبب ذلك المقدم ثم يشرع في المقصود، وقد يكون ذلك المقدم كلامًا مثل: النداء وحروف الاستفتاح، وقد يكون المقدم صوتًا كمن يصفق ليقبل عليه السامع، إلى غير ذلك من أدوات التنبيه ووسائله(١).

ونلاحظ أنَّه-ﷺ- استعمل من أدوات النداء (يا) وهي موضوعة لنداء البعيد، والمنادَى في الحديث قريب، فقد كان الضحاك-رضي الله عنه- يسير مع النَّبي -ﷺ- ومرافقا له، فكان يكفي أن يلقي إليه الخطاب بلا نداء، أو باستعمال أداةٍ لنداء القريب، ولكنَّه استعمل أداة النداء الموضوعة للبعيد مع المنادى القريب؛ لحث المنادى على مزيد من الإصغاء والاهتمام والتأمل، حتى إذا ما ألقي له الخبر استقبله وهو فارغ البال غير منشغل الذهن، فيقع من نفسه موقعا، ويجد له في قلبه موضعًا، بخلاف ما لو ألقي له الخبر هكذا بلا تنبيه، فلربما صادف قلبًا مشغولا وفكرًا ساهيا، فيكون بلا فائدة ترجى، أضف إلى ذلك أن النداء -كما ذكرت سابقًا- وإن كان موجهًا في ظاهر الأمر لذلك الصحابي إلا أنه ليس خاصًا به، بل هو نداء عام، لأنَّ توجيهَ النَّبي وإرشادَه وتعليمَه موجه إلى أمته إلى أن تقوم الساعة، ومن هنا كان استعمال أداة النداء الموضوعة لنداء البعيد أولى؛ ليكون النداء موجهًا إلى الأمة بأسرها.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٣/ ١٤٢٠هـ، جـ٢٥/ ٢٤.

وورد الاستفهام في موضعين من هذا الحديث، الأول قوله -ﷺ-: (مَا طَعَامُكَ؟) والثاني قوله: -ﷺ- (ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟)، والاستفهام هنا اتخذه النَّبي-ﷺ- وسيلة لما يقصد إليه من معنى وما يرمي إليه من غرض، وإلا فليس للنبي-ﷺ- حاجة في معرفة نوع الطعام الذي يطعمه الضحاك -ﷺ- ، ولا حاجة له كذلك في جواب الصحابي عما يصير إليه ذلك الطعام لعلمه-ﷺ- بذلك، فالاستفهام هنا جاء يطرق أبواب العقول المغلقة، والقلوب الموصدة؛ ليسري بخفة وسلاسة نحوها، ويزيل ما غشيها، ويرفع الحجب عنها، فتعود إلى سابق عهدها من الفطرة السليمة التي فطرها الله عليها، فتدرك حقائق الأمور، وتنجلي بصائرها لينكشف لها ما خفي عن الأبصار، إنَّ الاستفهام هنا يفتح باب التفكير على مصرعيه لينظر الإنسان إلى طعامه الذي أجهد نفسه في إعداده إلى أي شيء يصير ولأي شيء يتحول.

أدب الصحابي في رده على استفهام النَّبي-ﷺ-

ولما استفهم النَّبي-ﷺ- عما يصير إليه الطعام بقوله: " ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى مَاذَا؟ "، كان الجواب من الضحاك-ﷺ- بقوله: (إِلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ)، وهذا كناية عما يتحول إليه الطعام، والكناية هنا فيها من اللطف والأدب ما لا يخفى، وهي تدل على رجاحة عقل المتكلم وحسن اختياره لألفاظه.

يقول الجاحظ: "وربما كانت الكناية أبلغ في التعظيم، وأدعى إلى التقديم، من الإفصاح والشرح. وربما أتى من السكوت بما يعجز القول عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغاية أمنيته بالإيماء و الإشارة، حتى يكون تكلُّف القول فضلاً، والكلام خطلا " (١).

ويقول أبو حيان التوحيدي: "ولا تفصح عمّا تكون الكناية عنه أستر للعيب، وأنفى للرّيب، فإنّ الكلام صلف تيّاه لا يستجيب لكلّ إنسان، ولا يصحب كلّ لسان" (٢).

الحــوار

وكما هو واضح من الحديث أن النَّبي-ﷺ- لم يعتمد على طريقة التلقين وإلقاء المعلومات المباشرة للمتلقي؛ فإن مثل هذه الطريقة ربما أدت إلى انصراف المخاطب وعدم التفاته إلى ما يلقيه

---

(١) رسائل الجاحظ، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، جـ١/ ٣٠٧.

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى١٤٢٤هـ، ص٣٧.

المتكلم من خطاب، لكنه-ﷺ- اعتمد على أسلوب الحوار والتداولية في الحديث، فصار الخطاب بذلك مشاركة بينه-ﷺ- وبين الصحابي الجليل، وهذا الحوار وتلك المداولة لا شك لها أثر كبير في استمالة المخاطب، فالحوار من أهم الأساليب التي اختص بها البيان النبوي، وهو وسيلة فعالة من وسائل الإقناع وإقامة الحجة، كما أنه يفسح المجال ويتيح الفرصة للمخاطب ليبدي رأيه ويطرح وجهة نظره فيكون ذلك أدعى لإذعانه وإقراره، ومن ثم قبوله لما يلقى عليه وينبه إليه.

وهذا ما أشار إليه ابن الأثير حيث ذكر أنَّ مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنَّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها(١).

ضرب المثل

ثم ختم النَّبي-ﷺ- بيانه الشريف بضرب المثل، فضرب للدنيا مثلا بما يخرج من ابن آدم، وما يتحول إليه طعامه الذي أجهد نفسه في إعداده حتى قزحه بالتوابل وملَّحه، فكذا الدنيا التي يرهق نفسه في جمعها، ويكلف نفسه ما لا تطيق لينالها، هي في الحقيقة لا تعدو أن تكون مثل ذلك الشيء المستقذر الذي تعافه النفوس، وتنفر منه الطباع.

فذلك الطعام الذي اجتهد في صنعته وتحسينه لا محالة عائد إلى حال يستقذر، فكذا الدنيا التي يحرص على عمارتها راجعة إلى خراب وإدبار، شأنها في ذلك شأن ما يخرج من الإنسان، فقد كان قبل طعامًا طيبًا وشرابًا سائغًا، فصارت عاقبته ما ترون، فالدنيا تشتهيها النفس وتميل إليها، وينافس الجاهل في زينتها ظانًا أنَّها تبقى، أو هو يبقى(٢).

وتلك الشهوات التي يشتهيها القلب في الدنيا، كشهوات الأطعمة في المعدة، فكما أنَّ تلك الأطعمة اللذيذة إذا انتهت إلى المعدة تحولت إلى ذلك الشيء المستقذر المنفِّر، كذا شهوات الدنيا سيجد لها العبد عند الموت في قلبه من الكراهة والقبح والنتن ما وجده لتلك الأطعمة بعد تحولها، وكما أنَّ

---

(١) ينظر: المثل السائر ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت جـ٢/ ٦٤.

(٢) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦ه، جـ٢/ ٢٢٠

الأطعمة كلما كانت ألذَّ طعما وأكثرَ دسما وأكثرَ حلاوة كان رجيعها أقذر، فكذلك كل شهوة كانت في النفس ألذَ وأقوى فالتأذي بها عند الموت أشد(١).

وضرب المثل له أثر كبير في إيصال المعنى، وإقناع المخاطب بفحوى الخطاب، فلا يملك معه سوى التسليم والإذعان، إذ به يكون المعنى واضحًا بينا لا التباس فيه ولا غموض، ومن ثم تستسيغه النفس بلا شبهة، ويقبله العقل بلا ارتياب.

وقد أشار الإمام الحافظ ابن حجر –رحمه الله– إلى هذه الميزة للتمثيل عند شرحه لحديث الرجل الذي ولد له ولد أسود فقَالَ له النَّبي -ﷺ-: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى ذَلِكَ؟» قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ»(٢).

يقول ابن حجر: " فإنَّ الرجل لم يرد قذفًا بل جاء سائلا مستفتيا عن الحكم لما وقع له من الريبة، فلما ضُرِبَ له المثلُ أذعن" (٣).

ومن الأحاديث في هوان الدنيا أيضًا ما رواه مسلم في صحيحه، أنَّ رَسُولَ اللهِ-ﷺ- قال: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ- فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(٤).

---

(١) ينظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت/ مكتبة دار التراث، ط:الثالثة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، ص٢٣٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه باب " إذا عرَّض بنفي الولد" حديث رقم (٥٣٠٥) دار طوق النجاة، ت: محمد زهير بن ناصر (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط:١/ ١٤٢٢هـ، جـ٧/ ٥٣.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، ت: مجموعة من المحققين، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ه، جـ٩/ ٤٤٤.

(٤) رواه مسلم في صحيحه باب " فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة " حديث رقم (٢٨٥٨) جـ٤/ ٢١٩٣.

وهذا الحديث مثل آخر ضربه النَّبي -ﷺ- أظهر من خلاله هوان الدنيا وحقارتها بالنسبة للآخر، وقد بدأه -ﷺ- بالقسم ليرفع به ما قد يخالط النفس من تردد أو شك أو إنكار، ثم إنَّ القسم فيه مع تأكيد الحكم لفت للانتباه لتتوجه الأذهان إلى المقسم عليه فيتمكن منها ويستقر فيها.

و أكد- صلوات ربي وسلامه عليه- الحكم مرة أخرى باستعمال أسلوب القصر المكون من النفي والاستثناء في قوله: (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ)، ولو أنَّ الجملة جاءت خلوا من هذا القصر لما كانت بهذه القوة؛ ذلك أنَّ أسلوب القصر في القمة والمقدمة من أساليب وأدوات التأكيد؛ لما فيه من ضغط جملتين في جملة واحدة، فهو تركيز شديد في الأسلوب، وتأكيد فوق تأكيد(١).

والقصر هنا إلى جانب ما أضفاه على الحكم من تأكيد فإنَّه أظهر الدنيا في صورتها الحقيقة، وبين مدى التفاوت بينها وبين الآخرة، حيث أثبت لها هذا الحكم ونفى عنها كل ما عداه، فهي لا تعدو أن تكون على هذه الصورة المذكورة، بل هي أهون كما سيتضح من شرح الحديث، ثم إنَّ القسم والقصر أظهر أنَّ الكلام على جهة الحقيقة، فبين أنَّ الدنيا لا تعدو أن تعدل هذا الماء العالق بالإصبع إذا وضعت في البحر حقيقة، حتى لا يظن ظان أنَّ الكلام ليس على حقيقته، أو أنَّ الدنيا أرفع قدرا وأعلى شأنًا من ذلك، وأن النَّبي إنما أراد مجرد التهوين من أمرها والتقليل من شأنها.

والمثل هنا إنَّما قُصد به التقريب لأنَّ المثل إنما يضرب عن غائب بحاضر يشبهه من بعض وجوهه أو معظمها، وما لا مشابه له منع فيه من ضرب المثل، ومثل الدنيا بالذي يعلق بالأصبع من البحر تقريبا للعوام في احتقار الدنيا، وإلا فالدنيا كلها في جنب الجنة ودوامها أقل؛ لأنَّ البحر على سعته يفنى بالقطرات والجنَّة لا تبيد ولا يفنى نعيمها(٢).

---

(١) ينظر: أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، ط:١/ ١٤٠٦ه١٩٨٦م، ص٩.

(٢) فيض القدير للمناوي، جـ٥/ ٤٠٥.

فالدنيا بالنسبة للآخرة لا قيمة ولا وزن لها، وهذا هو المقصود من التمثيل، ويدل عليه قوله بعد: (فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟) ووجه هذا التمثيل أنَّ القدر الذي يتعلق بالإصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة [1].

فقوله-ﷺ-: (فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟) وضع موضع فلا يرجع بشيء، إلا أنَّه آثر هذا التعبير؛ لما فيه من استحضار تلك الحالة من مشاهدة السامع ثم أمره بالتأمل والتفكر، هل يرجع بشيء أم لا؟ [2].

ويفهم من هذا أنَّ النَّبي -ﷺ- استعمل الاستفهام وقصد به النفي، ولم يلجأ إلى النفي المباشر؛ لما في الاستفهام من دعوة إلى التأمل وإعمال العقل، ذلك أنَّ من يضع إصبعه في البحر إذا نظر إلى ما علق بها من ماء، وقارنه بماء البحر، دعاه ذلك إلى الاستهانة بذلك الماء العالق بإصبعه، بل إنَّه ينظر إليه على أنَّه لا شيء، وبذا يتأكد في نفسه المعنى المقصود من انعدام قيمة الدنيا إذا ما قوبلت بالآخرة وما فيها من نعيم، وإذا أدركت النفس هذا المعنى هانت عندها الدنيا وأقبلت على الآخرة.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي، ت: مجموعة من المحققين دار ابن كثير، دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، جـ٧/ ١٢٦.

(٢) ينظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى (الكاشف عن حقائق السنن) دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٩/ ٣٢٦.

المبحث الثاني

الزهد في الدنيا سفينة النجاة

ولما كانت الدنيا هيِّنة على الله، وهي في غاية الحقارة إذا ما قورنت بالآخرة وما فيها من نعيم مقيم، ولما كانت كذلك محببةً للقلوب؛ حيث تُغرم وتُفتن بها، وربَّما أدى ذلك إلى ميل النفوس إليها بالكلية وتعلقها بها بالجملة، ومن ثم انصرافها عن الآخرة، وهنا مكمن الخطر، وموضع الضرر، كان لابد من وسيلةٍ تكون بها النَّجاة من حبائلها، والخلاص من شرورها ومكايدها، وقد بين النَّبي-ﷺ- لأتباعه السبيل، وأوضح لهم الطريق، ودلهم على السفينة التي بها يعبرون هذا البحر الخضم، العاتية أمواجه، المضطرب ماؤه، المتقلبة أحواله، وتلك السفينة التي تحصل لهم بها النَّجاة، ويمكنهم بها خوض غمار هذا البحر هو الزهد فيها، وعدم الالتفات إليها، وهاك جملة من أحاديثه-ﷺ- عن الزهد فيها:

روى الإمام الترمذي في سننه عَنْ أَبِي ذَرٍّ-رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِي-ﷺ- قَالَ: «الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ المَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِ اللهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ المُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ»: " وقال حديث غريب(١).

وفي رواية (وَأَنْ يَكُونَ مَادِحُكَ وَذَامُّكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً)(٢).

وقد آثرت في هذا المبحث البدء بهذا الحديث؛ لما فيه من تفصيل نبوي لمفهوم الزهد والمقصود منه، إذ ربما يُفهم خطأ أنَّ المقصود من هوان الدنيا على الله، ووجوب الزهد فيها وعدم التعلّق بها أن يترك العبد دنياه وينقطع إلى أخراه، كيف والدنيا مزرعة الآخرة وهي المعبر إليها؟! فليس الزهد بتحريم ما أحله الله، فمثل ذلك تنطع وافتراء على الله، وليس الزهد بإضاعة المال الذي هو من أجلِّ نعم الله التي

---

(١) رواه الترمذي في سننه باب "ما جاء في الزهادة في الدنيا" حديث رقم(٢٣٤٠) ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م، جـ٤/ ١٤٩. وابن ماجة في سننه من حديث أبي ذر أيضًا باب (الزهد في الدنيا) حديث رقم (٤١٠٠) جـ٢/ ١٣٧٣.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان بهذه الزيادة مرفوعًا من حديث يُونُسَ بن مَيْسَرَةَ الْجُبْلَانِيُّ رقم(١٠٢٨٩) جـ١٣/ ٢٥١.

أنعم بها على عبده، فإنَّ ذلك محض السفه وعين الجهل، أما الزهد الحقيقي فهو كما عرَّفه النَّبي -ﷺ- في هذا الحديث الذي بين أيدينا: أن تكون ثقةُ العبد بما عند الله أشدَ من ثقته بما تمسكه يداه، وأن تكون رغبتُه في ثواب المصيبة في الشيء المنتفع به أشدَ من رغبته من بقاء هذا الشيء ودوام الانتفاع به، فما عند الله خير وأبقى.

وهذا الحديث صريح في أنَّ الزهد من أعمال القلوب لا الجوارح، فرُبَّ صاحب مظهر أنيق، ومركب فخم، وعيش ناعم، إلا أنَّ قلبَه معلقٌ بالله زاهد فيما سواه، ورُبَّ فقيرٍ رثِّ الثياب، مركبه نعلاه، يتوسد الأرض، ويلتحف السماء، إلا أنَّ قلبَه أوثقُ بما في يد الخلق مما في يد الله.

ويدلك على أنَّ الزُّهد من أعمال القلوب، أنَّ النَّبي -ﷺ- فسره بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح(١):

أحدها: أنْ يكونَ العبدُ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ مِنْ صحَّة اليقين وقوَّته، فإنَّ الله ضَمِن أرزاقَ عباده، وتكفَّل بها.

ثانيها: أن يكونَ العبدُ إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه مِنْ ذهابِ مالٍ، أو ولدٍ، أو غير ذلك، أرغبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه مِنَ الدُّنيا أنْ يبقي له، وهذا أيضًا ينشأُ مِنْ كمالِ اليقين.

وثالثها: أن يستوي عندَ العبد حامدُه وذامُّه في الحقِّ، وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، فإنَّ من عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحق خشيةَ الذَّمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ، وما فيه رضا مولاه.

كذا من الأحاديث التي دعا فيها النَّبي -ﷺ- إلى الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها أو الانخداع لها والاغترار بها، ما روي عن عبدالله -ﷺ- أنَّه قال: دَخَلَ عُمَرُ بن الْخَطَّابِ -ﷺ- عَلَى النَّبي -ﷺ- وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَمَا

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرنؤوط – إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: السابعة، ١٤٢٢هـ ،٢٠٠١م، جـ٢/ ١٨٠ وما بعدها.

لِلدُّنْيَا وَمَا لِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(١).

فإنَّ من عادة الدنيا وطبعها أنَّ من وثق فيها خذلته، ومن أمنها غرته، ومن أدرك تلك الحقيقة وعلم أنَّ نعيمها غير دائم، عاش فيها كالمسافر الذي يعبر الطريق ليصل إلى موطنه ويدرك غايته ويظفر بمراده، والدنيا في الحقيقة ما هي إلا طريق ومعبر للآخرة، ومدة العيش فيها كالمدة التي يجلسها المسافر ليستظل بظل شجرة ليعاوده نشاطه، ثم ينهض فيتركها إلى مقصده وغايته.

والنَّبي -ﷺ- قد استعمل من وسائل التعبير ما تمكن به من الإبانة عن المعنى، بل والضرب على نياط القلوب، وهز النفوس، لترى الأمور على طبيعتها، وتزنها بميزانها الصحيح، وقد بدأ الحديث بقوله: -ﷺ- (مَا لِي وَلِلدُّنْيَا وَمَا لِلدُّنْيَا وَمَا لِي) فنفى وجود أدنى ملابسة بينه وبينها، أو أي رغبة له فيها، ونفى كذلك وجود أي رغبة من الدنيا فيه -ﷺ- لا لهوانه عليها، بل لإعراضه هو -ﷺ- عنها، فإنَّها قد يئست من أن تصل إلى قلبه فضلًا عن أن تؤثر فيه، واستعمل-ﷺ- هنا ما يعرف بالعكس والتبديل، وكما هو واضح أن الغرض من استعمال العكس في الحديث الشريف: التأكيد على زهده في الدنيا، وانعدام رغبته فيها، لعلمه بحقيقتها وما يؤول إليه أمرها.

ثم انتقل -ﷺ-إلى توضيح حقيقة هذه الدنيا وحقيقة حياة المرء فيها، فمثل نفسه فيها بالمسافر، ومثل الدنيا بالشجرة المورقة النَّضرة، وقد استظل ذلك المسافر بظلِّها في يوم حار صائف، ثم سرعان ما راح وتركها، فكذا الدنيا ليست دارا للإقامة، وإنَّما شأنها شأن تلك الشجرة، يعمر المرء فيها ما شاء الله له أن يعمر، ثم يتركها ويتحول عنها إلى الآخرة التي هي دار القرار.

واستعمل النَّبي-ﷺ- في هذا المثل من أساليب التوكيد: القسم والقصر، فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ...) فأقسم أنَّ الدنيا لا تعدو ذلك المثل الذي مثل به، ثم قصر نفسه فيها على أنه كالمسافر، وقصر الدنيا على أنها كالشجرة التي يستظل بظلها ذلك المسافر في ساعة من نهار ثم

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم (٣٧٠٩) جـ٦/ ٢٤١. والترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح، رقم(٢٣٧٧) جـ٤/ ١٦٦. وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عباس رقم (٦٣٥٢) جـ١٤/ ٢٦٥.

يتركها، وذلك من قبيل قصر الموصوف على الصفة في كليهما، وقد أفاد هذا القصر أنَّ الإنسان في الدنيا شأنه شأن المسافر في كل أحواله بحيث لا يخرج وصفه عن ذلك، وأنَّ الدنيا كالشجرة التي يستظل بظلها ساعة ثم يتركها بحيث لا يخرج وصفها عن ذلك أيضًا، وفي هذا ما فيه من التهوين من شأنها والتزهيد فيها، والقصر هنا حقيقي ادعائي قصد به المبالغة، وإلا فالدنيا كما ذكرنا في الحديث السابق مزرعة للآخرة وهي المعبر إليها، وأنَّ المقصد من التزهيد فيها والتهوين من شأنها عدم تعلق القلوب بها، وميل النفوس إليها، وركونها إلى الدعة فيها.

والتمثيل هنا غاية في الدقة والروعة؛ لما فيه من مطابقة للواقع، واستقصاء لكل أحوال الممثل له، وفي ذلك يقول ابن القيم –رحمه الله-: " فتأمل حسن هذا المثال، ومطابقته للواقع سواء، فإنَّها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئا فشيئا كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها دارا ولا يتخذها قرارا، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق" (١).

ومن الأحاديث التي بين فيها النَّبي -ﷺ- خطر الدنيا، وخطر الانكباب عليها، والإفراط في التمتع بملذاتها، والإسراف في شهواتها، ما رواه أبو سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: جَلَسَ النَّبي -ﷺ- ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى المِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي، مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَسَكَتَ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ تُكَلِّمُ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلاَ يُكَلِّمُكَ؟ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ، فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ، إِلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ، وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ – أَوْ كَمَا قَالَ النَّبي

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٢٣٢.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١).

واحتج بعضهم بهذا الحديث في تفضيل الفقر على الغنى، وليس الأمر كما زعموا، والمتأمل يجد أنَّ الحديث حجة عليهم؛ لأنَّ النَّبي -ﷺ-، لم يخش عليهم زهرة الدنيا إلا إذا ضيعوا ما أمرهم الله به فكسبوا المال من غير وجهه وأنفقوه في غير حقه(٢).

وقد بدأ النَّبي -ﷺ- الحديث مصرحًا بخوفه، وصدَّر كلامه بإنَّ لتأكيد هذا الخوف، وفي هذا ما فيه من شحذٍ للعقول للوقوف على أسباب هذا الخوف، وفي التعبير بقوله: (مِنْ بَعْدِي) ما يدل على حرصه الشديد، واهتمامه البالغ بشأن أمته، وما يعرض لها من فتن حتى بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، بل إنَّ حرصَه عليهم بعد انتقاله أشدُ؛ لأنَّه إن عرض لهم عارضٌ وهو فيهم، فإنَّه سيكفيهم ويدفعه عنهم بما وهبه الله من حكمة، وبما يتنزل عليه من وحي، وبما له من تأييد وتوفيق من الله، أمَا وقد لحق بالرفيق الأعلى فمن لهم بعده، ومن يحرص عليهم حرصه، شأنه في ذلك شأن الأم الرؤوم، والأب الحاني الحريص على أبنائه حتى بعد وفاته، ولذا فإنَّه-ﷺ- أخبرهم بما يعرض لهم من فتن، وما سينالهم من أذى بعده حتى قيام الساعة، وقدم لهم الحلول النافعة، والأدوية الناجعة، وحثَّهم على الأخذ بها للخلاص من تلك الفتن، وصدق الله إذ يقول﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]

ولكن أي شرٍ هذا؟ وأي فتنةٍ تلك التي خافها على أمته وحذرهم منها؟ لقد خاف عليهم زهرة الدنيا وزخرفها، وما سيفتح لهم من أبواب الخير والنعمة، وهذا أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب؛ لأنَّ مثل ذلك مما يُحمد ويُسر به ويُهش له، ولذا كان الاستفهام من ذلك الرجل الذي كان في مجلسه (فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟) وهذا الاستفهام وإن كان من أثاره أحد الجالسين، إلا أنَّه لا

(١) رواه البخاري باب " الصدقة على اليتامى" حديث رقم(١٤٦٥) جـ٢/ ١٢١.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط:٢/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، جـ٣/ ٤٨٨.

شك كان يدور بخلدهم جميعًا؛ لأنَّ مثلَ هذا التحذير من زهرة الدنيا وما فيها من خير مما تستغربه العقول ويستعصي على الأفهام.

والاستفهام في قوله: (أَوَيَأْتِي الخَيْرُ بِالشَّرِّ؟) على سبيل الاسترشاد، وليس من قبيل الاعتراض؛ لأنَّ ذلك مستبعد من الصحابة رضوان الله عليهم، ولذا حمده النَّبي -ﷺ- كما جاء في الحديث (فَقَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ) [(١)].

وقد سكت النَّبي -ﷺ- عن الإجابة هنيهة، وسكوته يدل على أنَّ المعادلة صعبة تحتاج إلى وحي من الله في ميزان دقيق، يكشف الغموض في هذا التناقض في الظاهر، ليكون مقياسًا إلهيًا، وميزانًا عادلًا في التعامل مع الخير وزينة الحياة الدنيا، ليأتي بالخير والثواب العظيم حتى لا يكون وبالًا على صاحبه يجلب له الشر والعقاب، وكان لابد للرسول أن يخرج المستمعين من حيرتهم التي أحاطت بهم، ولذا لجأ إلى التمثيل بما فيه من تصوير دقيق يقرب المعنى للأفهام فيكشف ما خفي ويجلي ما غمض[(٢)].

فضرب مثلاً للمستكثر من الدنيا الغارق في شهواتها بقوله: (وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ) يعنى أنَّ الاستكثار من المال والخروج من حد الاقتصاد فيه ضار، كما أنَّ الاستكثار من المأكل مسقم، ضرب هذا مثلاً للحريص على جمع المال، المانع له من حقه، والربيع تنبت فيه بعض النباتات التي تستهوي الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها فتهلك [(٣)].

وفي رواية أنَّه-ﷺ- قال في جوابه عن استفهام ذلك الرجل: (أَوَ خيرٌ هُوَ؟ إِنَّ الْخَيْرَ لا يَأْتِي إِلاَّ بِالْخَيرِ) فقابل استفهام الرجل بمثله، فقال على سبيل الإنكار: (أَوَ خيرٌ هُوَ؟) وعلل ذلك الإنكار بأن الخير

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ٩/ ٣٩.

(٢) ينظر: التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، د/ علي علي صبح، المكتبة الأزهرية، ط:١/ ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م، ص١٥٠.

(٣) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، جـ٣/ ٤٨٨.

الحقيقي لا يأتي إلا بالخير، لكن هذا، أَي: المَال ، ليس خيرًا حقيقيًا لما فيه من الفتنة والإشغال عن كمال الإقبال إلى الآخرة [١].

ثم ضرب-ﷺ- مثلا للمقتصد بقوله: (إِلَّا آكِلَةَ الخَضْرَاءِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ، فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، وَرَتَعَتْ) فالْخَضِر ليس من جيد البقول التي ينبتها الربيع بتوالي المطر، وإنَّما هو من البقول اليابسة التي بقيت بعد هيج البقول ويبسها، فتأكله الماشية لأَنَّها لا تجد غيره، ولكنَّها لا تستكثر منه لأنَّه لا يستهويها ولا ترغب فيه، فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلا لمن يقتصد في الدنيا ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حق، فإنَّه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخَضِرِ من الانتفاخ والهلاك[٢].

ثم قال-ﷺ-: (وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ) فأنث خضرة وحلوة مع أنَّ المال مذكر باعتبار أنَّ المراد زهرة الدنيا، أو أنَّ التقدير: إنَّ هذا المال كالبقلة الخضرة، وعليه فقوله: (خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ) ليس صفة وإنما هو من قبيل التشبيه والتمثيل، أو أن التاء للمبالغة كراوية وعلامة، وخصَّ الأخضر لأنه أحسن الألوان، ولما ذكر لهم-ﷺ- ما يخاف عليهم من فتنة المال أخذ يعرِّفهم دواء داء تلك الفتنة بقوله: (فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ) [٣].

وفي قوله: (وَإِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ وَاليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ) تشبيه ضمني، حيث شبَّه المال في إقبال النفس عليه، وانجذابها إليه، بالنبات الأخضر الذي يتوالى عليه ماء الربيع، فيزهو وينضر ويسر الناظر إليه، لكنَّه في الحقيقة قاتلٌ للماشية إنْ هي استكثرت منه، فإن لم يقتلها أضر بها وأمرضها، ثم شبَّه شهوة الإنسان إلى ذلك المال، وحرصه على جمعه دون أن يبالي أمن الحلال جمعه أم الحرام، فيكون سببًا في هلاكه، بتلك الماشية التي تأكل ذلك النبات

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، جـ١٤/ ١٣٦.

(٢) ينظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: ٢/ ١٤٠٦-١٩٨٦م. جـ٥/ ٩٢.

(٣) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط:٧/ ١٣٢٣هـ، جـ٣/ ٥٤.

الأخضر حتى تمتلئ خاصرتاها فيهلكها أو يضرها، ثم شبَّه المقتصد في جمعه الذي ينفقه في وجهه، ويؤدي حق الله فيه، فيعطي المسكين وابن السبيل، بتلك السائمة التي أكلت ثم بالت فأخرجت بذلك ما يؤذيها وأبقت ما ينفعها، وكأنَّه شبه ما يخرجه صاحب المال من فضل ماله، بما تخرجه الماشية بعد أكلها، فكما أنَّ فضل الطعام لو بقي في بطونها فإنَّه يؤذيها، كذا فضل المال لو بخل به صاحبه فإنه يؤذيه، حيث تُمحق بركةُ ماله، وتوغر صدور الفقراء عليه فتمتلئ حسدا وحقدا، ثم يُسأل عن ذلك المال الذي بخل به ولم يؤد حق الله فيه.

ثم ختم النَّبي -ﷺ- الحديث بتشبيه صريح، شبه فيه ذلك الذي يجمع المال ويأخذه بغير حقه بمن يأكل لكنَّه لا يجد لهذا الطعام أثرًا في معدته، ولا على بدنه وصحته، فلا يزداد بكثرة الطعام إلا جوعًا فقال-ﷺ- (وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) وفي هذا التشبيه إشارة إلى أنَّ العبرة ليست بالجمع والكثرة وإنَّما بالبركة، وفيه كذلك تحذيرٌ من الخوض في الحرام وجمع المال من غير وجهه، فإنَّه سيكون شهيدًا على صاحبه، فيكون سببًا في التعب والعناء والعذاب في حين كان يؤمل به صاحبه الرغد والمتعة والراحة.

وقد أخذوا من هذا الحديث الكثيرَ من المعاني منها[١]:

أولًا- جواز استرشاد التلميذ من العالم في الأشياء المجملة والغامضة حتى يفسر له ما يبين معناها، وهذا من الأمور المحمود لما فيه من فائدة تعود على السائل وغيره من الحاضرين.

ثانيًا- للعالم إذا سُئل أن يتأنى في الجواب حتى يتيقن أو يطالع المسألة عند من فوقه من العلماء، كما فعل النَّبي-ﷺ- في سكوته عن السائل حتى استطلعها من قبل الوحي.

ثالثًا- من اكتسب المال من غير حله لم يبارك له فيه، وكان كمن يأكل ولا يشبع لأن الله تعالى قد رفع عنه البركة، وألقى في قلبه الفاقة، وقلة القناعة.

---

(١) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، جـ٣/ ٤٨٨.

ومن الأحاديث كذلك التي أرشد فيها النَّبي-ﷺ- إلى الزهد في الدنيا والاقتصاد منها ما رواه البخاري بسنده عَنْ عبد اللهِ بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(١)

فقد وجه النَّبي-ﷺ- من خلال هذا الحديث الموجز وصية للصحابي الجليل ابن عمر -رضي الله عنهما- وإلى الأمة عامة، مفادها الحض على الزهد في الدنيا، وقلة المخالطة فيها، فشبه الإنسان فيها بالغريب، فهو قليل الانبساط إلى الناس، يجد في نفسه وحشة منهم؛ إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه فيأنس به، لذا تراه حذرًا مترقبًا قلقًا، ثم ترقى فشبهه بعابر السبيل الذي لا يحمل ما يثقل كاهله أو يعوقه عن سفره، فليس معه إلا زاده ورحلته يُبلِغانه إلى بغيته من قصده، وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه الآخرة (٢).

و (أو) في قوله: (أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ) ليست شكًا من الراوي بل هي للتخيير أو الإباحة، والأحسن أن تكون بمعنى (بل)، فيكون المعنى على أنه-ﷺ- شبه الناسك السالك بالغريب لا مسكن له يأويه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل، إذ الغريب قد يستوطن بلد الغربة ويسكنها، بخلاف عابر السبيل الذي يقصد بلدًا بعينه، وبينهما أودية مردية، وطرق وعرة، ومفاوز مهلكة، وقطاع طرق، فإنَّ من شأنه أن لا يقيم لحظة، ولا يسكن لمحة، ومن ثم عقبه بقوله: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ) وبقوله: (وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ) والمعنى: استمر سائرًا ولا تفتر حتى لا تهلك في تلك الأودية (٣).

والنَّبي-ﷺ- قبل أن يوجه تلك الوصية وهذه الموعظة إلى ابن عمر أخذ بمنكبه، كما جاء في الحديث : (أَخَذَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- بِمَنْكِبِي)، وفي هذا ما يوحي بعطفه وحنوه عليه، ورغبته في لفت انتباهه

(١) صحيح البخاري باب قول النَّبي-ﷺ-«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» حديث رقم(٦٤١٦) جـ٨/ ٨٩.

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال، جـ١٠/ ١٤٨،١٤٩.

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر، جـ١١/ ٢٣٤.

للإصغاء لقوله، ومن ثم الانتفاع بما سيرشده إليه وما يدله عليه، وهذه وسيلة من أنجع وسائل التربية، وطريقة من أبلغ طرق الدعوة، حيث ينبغي أن يستشعر المدعو حرص الداعي وحدبه عليه ورفقه به، فيقبل دعوته ويصغي لنصيحته.

المبحث الثالث

تعس عبد باع دينه بدنياه

بينت في المبحث السابق من خلال الأحاديث النبويَّة الشريفة، أنَّ الزهدَ في الدنيا هو السفينة التي تحصل بها للعبد النَّجاة من حبائلها وشراكها، وقد بيَّن النَّبي -ﷺ- حقيقة الزهد المراد، فليس هو بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، وإنَّما الزهد يكون بتعلق القلب بالله، وثقته فيما عند الله، حتى يكون العبد أشد ثقة فيما عند الله مما تملكه يداه، ومن ثم فلا علاقة للزهد بالغنى أو الفقر، فرب غني زاهد، وفقير طامع، فالمقياس الذي به تقاس الأمور، وتكون به المفاضلة هو القلب، وبأي شيء يكون تعلقه.

فإذا ما أعرض العبد ونأى بجانبه عن ذلك الدواء الذي وصفه النَّبي -ﷺ- انقلبت عليه الأمور، فتحولت سعادته إلى شقوة، وسروره إلى حزن، وغشيته التعاسة، وأحاطت به الكروب، ذلك أنَّ القلب إذا لم يكن متعلقًا بربه، مؤملًا ما عنده، تعلَّق بالنَّفس وشهواتها وملذاتها، فانصرف من العبودية لربه إلى العبودية لنفسه وشهواته، ومهما حاول إرضاء ذلك المعبود فلن يرضى، وتلك عقوبة من الله لمثل هذا العبد الذي تخطَّفته الأهواء وتجاذبته الشهوات.

وقد حذر النَّبي -ﷺ- من سلوك هذا المسلك، ونبَّه على تبعاته وما يجره على العبد من تعاسة وشقاء، لاسيما إذا كان عبد سوء، ذا همَّة منحطَّة، ونفس خبيثة سولت له بيع دينه بدنياه.

ومن أحاديث هذا الباب ما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة -ﷺ- قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: (يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا)(١).

---

(١) رواه الترمذي في سننه حديث رقم(٢٤٠٤) جـ٤/ ١٨٢ . وابن أبي شيبة في مصنفه باب " ما قالوا في البكاء من خشية الله" حديث رقم (٣٥٦٢٤) جـ٧/ ٢٣٥.

فالحديث الشريف يصف لنا طائفة من الناس اتخذوا الدين مطية للدنيا، فلم يقصدوا بالعبادة وجه الله، ولم يكن عملهم خالصًا له تعالى، وإنَّما اتخذوا العبادة وسيلةً لمخادعة النَّاس، فهم قوم يحسنون النفاق حتى إنَّهم ليظهر عليهم سمت الصالحين، ويجري على ألسنتهم كلام الصالحين، فينخدع الناس لهم، ويثقون فيهم، كما تنخدع الشاة للذئب، فهم في الحقيقة كالذئب يحتال لفريسته حتى يجد منها غفلة فينقضّ عليها، فكما أنَّ الذئب يحتال لفريسته، فهم كذلك يختلون الدنيا بالدين، أي: يطلبون الدنيا بالدين، فيتخذون من الدين ولين الكلام وسيلة لغايتهم الدنيئة ومآربهم الخسيسة؛ ليصلوا بهما إلى الدنيا وشهواتها، وليبذل لهم الناس من أموالهم.

وفي التعبير بالمضارع في قوله: (يَخْتِلُونَ و يَلْبَسُونَ) تنبيه على تجدد هذا الأمر منهم حتى صار طبعًا لهم وعادة من عاداتهم، فإنَّ المضارع يفيد التجدد والاستمرار.

وقوله-ﷺ-: (يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ) إما أن يحمل على الكناية، فيكون هذا التعبير كناية عن إظهار اللين مع الناس، ومخادعتهم بهذا الورع الكاذب واللين الزائف، وإما أن يحمل على الحقيقة، والمراد أنهم يلبسون الخشن من الثياب كجلود الضأن وأصوافها ليظنَّهم الناس زهادًا عبادا تاركين للدنيا راغبين في العقبى، وهذا هو الأظهر(١).

ولجأ النَّبي-ﷺ- إلى التشبيه ليجلي الأمر ويزيده وضوحًا وبيانًا، وليُظهر مهارتهم في الخداع، وإجادتهم للتصنع والنفاق، فقال: (أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ) فشبه ما يجري على ألسنتهم من كلام حسنٍ، وقولٍ طيبٍ يُحدث في الأسماع ميلا، وفي القلوب انجاذبًا، وفي النفس نشوة وسرورا، بالسكر الذي يلتذ طاعمه، وينتشي ذائقه، لما يجده من حلاوة في فمه، ولذة في نفسه تجعله يقبل عليه، بل ويجتهد في طلبه، والتشبيه هنا أظهر المعنوي في صورة محسوسة ملموسة جعلت المعنى أكثر وضوحًا وأشدَّ بيانًا، بل إنَّك لو تأملت لرأيت أنَّه-ﷺ- قد بالغ في هذا التشبيه، وفي وصف هذه الألسنة بالخداع، فلم يكتف بتشبيه ما يجري عليها من كلام بالسكر، بل جعل له من الحلاوة والطلاوة ما ليس

(١) ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٧/ ٧٢.

للسكر، وذلك باستعمال أفعل التفضيل (أَحْلَى)، وفي هذا ما فيه من التأكيد على شدة نفاقهم، وفيه كذلك تحذير من الانخداع لمكرهم ومعسول كلامهم.

ثم شبه -ﷺ- قلوبهم بقلوب الذئاب، فبين بهذا التشبيه البون البعيد والتفاوت الشديد بين ما يجري على ألسنتهم وما تنطوي عليه قلوبهم، فإنَّ ألسنتهم أشد حلاوة من السكر، بينما قلوبهم أشد مرارة من العلقم، وفي اختيار النَّبي -ﷺ- للذئب دون غيره من الحيوانات كالقردة أو الخنزير مثلا؛ لما يتسم به الذئب من خداع، ولما عرف عنه من مكر فاق به سائر الحيوانات، ثم إنَّ الذئب يحتال لفريسته ليتمكن من الإيقاع بها والسيطرة عليها، فلا يهجم على فريسته مباشرة، بل يتحين الفرصة ويتربص بها حتى يجد منها غفلة، وهكذا هؤلاء الذين ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب ذئاب، لا يظهرون ما تنطوي عليه قلوبهم المريضة من خبث، وما تحويه نفوسهم الضعيفة من حقد وكره، وليتهم إذ أضمروا هذا وكتموه توقف بهم الأمر عند هذا الحد، بل إنَّ كيدهم امتد، وخبثهم اشتد، فأظهروا عكس ما يضمرون، وظهروا بمظهر من أذاب الحب قلبه، وملك عليه لبه وعقله، وهم في حقيقة الأمر ذئاب يتربصون.

وفي تشبيه قلوبهم بقلوب الذئاب تنبيه على غلبة الصفات البهيمية والشهوات الحيوانية والإرادات النفسية على قلوبهم، حتى صارت تلك الشهوات - من حبِّ الدنيا، والاحتيال لنيلها، واتخاذ الدين مطية للوصول إليها- هي المحركة لهم، والمسيطرة عليهم، فباعوا لأجلها كل نفيس، وضحوا بكل غال بما في ذلك دينهم، وهذا إن دل فإنَّما يدل على أنَّ هؤلاء قد سيطرت عليهم النفعية والأنانية، فلا تستغرب بعد إن خدعوا الناس لنيل شيء من مالهم، أو ليجدوا حظوة عندهم ومكانة فيهم، فهم قد باعوا قبل دينهم(١).

ثم قال -ﷺ- فيما رواه عن رب العزة: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (أَبِي يَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟) والاستفهام للإنكار والتوبيخ، و(أم) منقطعة بمعنى بل، والتقدير: بل أعلي يجترئون، فأنكر أولًا اغترارهم بالله وبإمهاله إياهم حتى اغتروا، ثم أضرب عن ذلك وأنكر عليهم ما هو أشد وهو اجتراؤهم

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شـرح مشـكاة المصـابيح للهروي، دار الفكر، بيروت، لبنان ط:١/ ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م، جـ٨/ ٣٣٣٥ بتصرف كبير.

على الله، وقدم الجار والمجرور على الفعل في الموضعين زيادة في التوبيخ ومبالغة في الإنكار، فهو ينكر عليهم غرورهم بإمهال الله لهم وحلمه عليهم، حيث لم يعجل لهم العقوبة، وأتاح لهم الرجوع والتوبة، فإذا بهم يجترئون على الله بانتهاك حرماته ومخالفة أمره [١].

(فَبِي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا) أقسم الله تعالى هنا بذاته فقال: (فَبِي حَلَفْتُ) أي: بذاتي وعظمتي وجلالي، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، فقد أقسم بالشمس والقمر والليل والضحى إلى غير ذلك مما أقسم به سبحانه، لكنَّه هنا أقسم بذاته، وقدم الجار والمجرور على الفعل بما يفيده هذا التقديم من قصر، والمعنى بي حلفت لا بغيري، وفي هذا ما فيه من الوعيد الشديد، والعزم الأكيد، والتعظيم لشأن هذا القسم، حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أن يأكل الدنيا بالدين، ويتخذ من الدين وسيلة لخداع الناس وأخذ ما في أيديهم، وإنَّما كان هذا الوعيد والتأكيد في القسم؛ لأنَّ خطر هؤلاء على الدين وعلى المجتمع شديد، فقد يصل بهم الأمر للتلبيس على الناس، وتحريف ما أنزل الله من أحكام، وتغيير ما شرعه من شرائع، إذا وجدوا في تلك الأحكام ما يحول بينهم وبين ما يقصدونه من متع الدنيا وشهواتها، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن الكفر بعد الإيمان!

وبعد أن صدر الجملة بالقسم أكد الفعل باللام والنون، فقال (لأَبْعَثَنَّ (فاللام واقعة في جواب القسم وهي مفيد للتوكيد، وجاء الفعل مقترنًا بنون التوكيد الثقيلة وذلك ليؤكد ما سيحل بهم من عذاب، وما سيقع عليهم من بلاء، وما سيلحقهم من فتن يضطربون منها اضطرابا، وتجعل الحليم حيرانًا.

وقوله: (عَلَى أُولَئِكَ) بوضع المظهر موضع المضمر، فخالف بذلك الظاهر، إذ كان المقتضى أن يقول: عليهم، لكن في وضع اسم الإشارة موضع الضمير تنبيه على وجه بناء الخبر، وإشارة إلى أن ذلك البلاء وتلك الفتنة التي توعدهم الله بها إنما سببها ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة، ويجوز أن يكون الغرض من وضع اسم الإشارة موضع الضمير هو التهكم بهم والتحقير من شأنهم والوضع من قدرهم.

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي، جـ٨/ ٣٣٣٦ بتصرف.

وفي التعبير بـ (منهم) وتكرارها في قوله: (لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا) ما يفيد أنَّ هذه الفتنة وكأنَّها موجه لهم، قاصدة إيَّاهم، نازلة بهم دون غيرهم، فهم لخبث نفوسهم استحقوا أن يخصهم الله بفتنة وعذاب من عنده.

ومن في "مِنْهُمْ" يجوز أن تكون للتبيين بمعنى الذين، والإشارة إلى الرجال، والتقدير: لأَبْعَثَنَّ على أولئك الذين يختلون بالدين، ويجوز أن تكون متعلقة بالفتنة، أي: لأبعثن عليهم فتنة ناشئة منهم(١).

وعلى التقدير الثاني يكون قد جعل تدبيرهم سببًا في هلاكهم ونزول الفتنة بهم، فهم يدبرون لينالوا الدنيا والمنزلة عند الناس، فإذا بهذا التدبير يعود بالوبال عليهم، ويكون سببًا في فتنتهم، وإظهار عيوبهم، وسقوط منزلتهم عند الناس.

ومن أحاديث هذا الباب أيضًا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -ﷺ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- قَالَ: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا)(٢).

وفي هذا الحديث حث على المسارعة إلى صالح الأعمال قبل تعذرها، بسبب ما ينزل من فتن متراكمة كتراكم ظلمات الليل، فتلك الفتن لشدتها تشغل العبد عن الأعمال الصالحة، بل ربما- عياذا بالله- أخرجته من الهدى إلى الضلال، ومن الإيمان إلى الكفر(٣).

وقوله-ﷺ-(بَادِرُوا) أمر قصد به التوجيه والنصح والإرشاد إلى التزام الأعمال الصالحة والحرص عليها، إذ بها تكون الوقاية من الفتن وشرورها، وآثر التعبير بقوله: (بَادِرُوا) دون غيره مما يمكن أن يقوم مقامه من نحو: عليكم بالأعمال الصالحة، أو أوصيكم بالعمل الصالح قبل وقوع الفتن؛ لأنَّ في التعبير ببادروا معنى ليس في غيره، فإن فيه تحفيزًا واستنهاضًا للهمم، وحثًا على العمل الصالح قبل فواته وعدم

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي، جـ٨/ ٣٣٣٦.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه باب (الْحَثِّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهُرِ الْفِتَنِ) جـ١/ ١١٠

(٣) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٢/ ١٣٩٢هـ، جـ٢/ ١٣٣.

القدرة عليه، فالتعبير ببادروا يوحي بأنَّ الشيء المأمور به مظنة للفوت، وأنَّ العبد إن لم يستجمع قواه ويشحذ همته وعزيمته، فهيهات أن يصل إلى ذلك المأمور به فضلًا عن أن يناله ويحصّلَه، كذا التعبير ببادروا يبث في النفس خوفًا وفزعًا، ويشير من أول الأمر إلى ما سيلقى على الكاهل من عبء، فتستعد النفس لتلقيه، ومن ثمَّ لقبوله والتعامل معه، والنَّبي -ﷺ- قد اختار هذا الفعل ليلفت انتباههم إلى أهمية ما يلقى عليهم من خبر، وليحدث في نفوسهم تشوقًا وترقبًا لهذا الخبر، حتى إذا ما ألقي وجد له من النفس موقعًا، ومن العقل تدبرا، ومن الجوارح امتثالا وعملا، وأخيرا في التعبير بقوله: (بَادِرُوا) -بما يدل عليه من مفاعلة- ما يشعر بأنَّها مبارزة ومقاتلة بين الأعمال الصالحة والفتن، فأيهما سبق وكثر كانت له الغلبة على صاحبه، والعبد إن بادر إلى الأعمال الصالحة كانت له حصنًا منيعًا وحاجزا قويًا يحميه من تلك الفتن، أما إذا تراخى استبدت به تلك الفتن حتى تقتلعه من الإيمان وتلقي به في غياهب الضلال والكفر.

وقوله-ﷺ-: (فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ) تعظيم لأمر تلك الفتن من جهات:

أولها: أنها وردت بصيغة الجمع، وهذا يدل على كثرتها وتشعبها، فهي ليست فتنة يمكن احتواؤها وتداركها، بل هي فتن متنوعة محدقة بالعبد تحيط به وتمنعه العمل، بل وتحوله من الإيمان إلى الكفر.

ثانيها: ورودها بصيغة التنكير، والتنكير هنا مفيد للتعظيم والتكثير، وربما أفاد مع ذلك النوعية، مما يدل على أنَّها فتن ليست من جنس الفتن المعهودة التي قد تشغل العبد عن العمل، بل إنَّها فتن من جنس خاص، تأخذ بلب العبد، وتستولي على مجامع عقله، وزمام قلبه، ولا تزال به حتى يكفر كفر نعمة أو كفر ملة.

ثالثها: أنَّه شبه الفتن بالليل المظلم، وفي هذا ما يدل على إحاطة تلك الفتن بالعبد واجتماعها عليه إحاطة الليل المظلم واشتماله بما يقع عليه، وفي وصف الليل بالمظلم ما يدل على شدتها واختلاط الأمور فيها، فكما تختلط الأشياء ولا يمكن تمييزها في الليل المظلم لشدة الظلام، كذا يختلط الحق والباطل ولا يمكن التميز بينهما لشدة تلك الفتن، حتى يصير الناس في عمياء، لا يفرقون بين منكر

ومعروف، ولا يميزون حقًّا من باطل، ولا خطأ من صواب، بل يدافع كل عما يعتقده ويراه، بل ربما لو تميز لهم المعروف من المنكر لأصروا على منكرهم استجابة لداعي تلك الفتن وتأثرًا بها.

يقول ابن رسلان المقدسي: " قطع جمع قطعة، وهي الطائفة من الليل، أراد أن كل فتنة سوداء مظلمة، وشبه الفتن بالليل المظلم تعظيمًا لشأنها وعِظَمِ خطرها" (١).

ويفاد من قوله: (أراد أن كل فتنة سوداء مظلمة) أن كل فتنة مستقلة عن أختها تشبه قطعة من الليل المظلم، ثم تتوارد تلك الفتن وتتعاقب واحدة تلو الأخرى حتى يتألف منها مجتمعة ما يشبه ذلك الليل الذي تختلط فيه الأشياء ولا يستبين منها شيء، ومن ثم فإذا ما أراد العبد النَّجاة فعليه بالعمل الصالح أولا، ثم التخلص مباشرة من كل فتنة تعرض له بالتوبة والأوبة والرجوع إلى الله، وذلك قبل أن تتراكم عليه تلك الفتن وتحيط به إحاطة الليل المظلم فلا يمكنه ساعتها النَّجاة منها والخلاص من شرورها وبوائقها، ويبين هذا المعنى ويدل عليه ما رواه حذيفة-ﷺ- أنَّ النَّبي-ﷺ- قال" تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عَرْضَ الْحَصِيرِ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرِ أَسْوَدَ مُرْبَدٍّ كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا ـ وَأَمَالَ كَفَّهُ ـ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ " (٢). فهذا الحديث يبين أن القلب إذا أنكر الفتنة عند ورودها لم تضره ولم تؤثر فيه، أما إذا أشربها فإنه يتحول إلى قلب لا يميز بين المعروف والمنكر، وتلك عقوبة من الله لصاحب هذا القلب، وأي عقوبة أشد من التباس الأمر على العبد؟ بحيث لا يمكنه التمييز بين الخير والشر، والمعروف والمنكر.

وقوله-ﷺ-: (يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا) أي يصبح موصوفًا بأصل الإيمان أو بكماله، وقوله: (ويمسي كافرًا) إمَّا أن يحمل على حقيقته بأن يكفر بالله كفرًا حقيقيا، ولا يمتنع حمله على ذلك

---

(١) شرح سنن أبي داود لابن رسلان المقدسي، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، ط:١/ ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م، جـ١٧/ ١٤.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه " بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامِ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ" حديث(٢٣١) جـ١/ ١٢٨.

لأنَّ الفتن إذا تراكمت أفسدت القلب وأورثته القسوة والغفلة التي هي سبب الشقاء، كما يحتمل الكفران بالنعم لما يداخله من المعاصي المبعدة من ساحة الشكر، أو أنَّ المقصود أنَّه يصير مشابهًا للكفرة أو عاملًا عمل الكافر، وقيل: يصبح مُحَرِّمًا ما حَرَّمَهُ اللهُ ويمسي مستحلًا إياه وبالعكس، وحاصله التذبذب في أمر الدين والتتبع لأمر الدنيا(١).

وهذه الجملة وهي قوله:(يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا) استئناف بيان لحال المشبه وهو قوله: " فِتَنًا "، وقوله: " يَبِيعُ " إلخ، بيانٌ للبيانِ(٢).

وقوله-ﷺ-: (يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا): تعليل لتحوله إلى الكفر، أي إنَّ الذي دفعه إلى ذلك عرض الدنيا الزائل ومتعها الفانية، وفي ذكر الصباح والمساء كناية عن سرعة التحول وكثرته، وإلا فالتقييد بالصباح والمساء ليس مقصودًا لذاته، وفي هذا ما يدل على شدة الفتن وكثرة تواردها على القلب وتأثيرها فيه.

وقد حقر النَّبي -ﷺ- من شأن هذا الثمن الذي باع به العبد دينه من عدة وجوه:

أحدها: أنه قال:(يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) ولم يقل: يبيع دينه بالدنيا، ولو أن العبد باع دينه بالدنيا وما فيها وما عليها لكان خاسرًا، لأنه يبيع باقيًا بفان، فكيف وهو يبيع الدين بعرض من أعراضها؟ لا شك أنَّ الخسارة أفدح والمصيبة أشد.

ثانيها: أنَّه-ﷺ- أفرد العرض ونكَّره، فقال: (بِعَرَضٍ)، وفي الإفراد والتنكير تقليل وتحقير لشأن هذا العرض المطلوب، وفيه كذلك تحقير وتقليل من شأن طالبه إذ لا يرضى بمثل تلك الصفقة إلا منحط الهمة خسيس الطبع، حتى إنَّه لصغر نفسه رضي لها بما نزل واستحقر من أمور الدنيا وأعراضها الزائلة الدنيئة.

---

(١) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان البكري، ت: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط:٤/ ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، جـ٢/ ٢٩٨. وينظر: مرقاة المفاتيح جـ٨/ ٣٣٨٣.

(٢) مرقاة المفاتيح جـ٨/ ٣٣٨٣.

ثالثها: التعبير بـ "من" بما تفيده من التبعيض إذ التقدير: يبيع دينه بعرض من أعراض الدنيا، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

رابعها: وصفه في روايات أخرى لهذا العرض بالزائل والقليل واليسير، وبذا يكون قد جمع في تحقير هذا العرض بما يفهم بالفحوى من دلالة اللفظ حيث نكَّره وأفرده، ثم لم يكتف فصرَّح بتحقيره وتقليله عن طريق الوصف.

المبحث الرابع
والآخرة خير وأبقى

تقدم فيما أسلفته من أحاديث ما يدل على هوان الدنيا على الله، وأنَّ الزهد فيها سفينة النجاة، وأنَّ التعاسة والخسار لمن باع دينه بدنياه، وأنَّ الزهد في الدنيا ليس معناه ترك العمل أو إضاعة المال، وإنَّما الزهد باجتناب الحرام، وتحري الحلال، والسعي في مرضاة الله، وقد تبين مما أوردته من أحاديث أنَّ الدنيا معبرٌ ووسيلةٌ، والآخرة غاية، فالدنيا لا محالة إلى زوال، والآخرة هي دار القرار، ومن ثم فالسعيد من نزع الله من قلبه حبَّ الدنيا، والتعلقَ بأهدابها، والركونَ إلى شهواتها، ورزقه حبَّ الآخرة، فسعى لها سعيها.

وقد وردت أحاديث كثيره تنبه العبد إلى هذا الأمر، وتحثه على إيثار الآخرة، فهي خير من الدنيا وأبقى، فمن ذلك ما رواه أَنَس بن مَالِكٍ -ﷺ-، عَنِ النَّبي -ﷺ- أنه قال: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ غَدْوَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ، أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - يَعْنِي سَوْطَهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

ففي هذا الحديث النَّبوي الشريف يبين -ﷺ- أنَّ الآخرة خير من الدنيا من كل وجه، فالعمل الذي يُراد به وجه الله خيرٌ للعبد من الدنيا وما حوته، بل إنَّ موضعَ السوط في الجنَّة مع دقته وصغر حجمه خير من الدنيا وما اشتملت عليه، بل إنَّ نصيف المرأة من أهل الجنَّة على رأسها خير من الدنيا وما فيها، وإذا كان الأمر على ما بينه ووصفه الصادقُ المصدوقُ، فإنَّ هذا يفيد أنَّ الدنيا في حقيقتها لا شيء إذا قورنت بالآخرة بما فيها من نعيم مقيم لا يفنى ولا يبيد.

ونلاحظ هنا التدرج من الأعلى إلى الأدنى لإظهار ما بين الدنيا والآخرة من بون شديد وتفاوت بعيد، فبدأ بالروحة والغدوة في سبيل الله، يقصد بذلك الجهاد لإعلاء كلمته ونشر دينه، ثم ثنى بما هو من لوازم الجهاد وأدواته، فذكر السوط والقوس، مبينًا أنَّ موضعهما من الجنَّة خير من الدنيا وما فيها،

(١) رواه البخاري في صحيحه بَابُ " الحُورِ العِينِ، وَصِفَتِهِنَّ يُحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ،... " حديث رقم (٢٧٩٦) جـ٤/ ١٧.

ثم ثلث بذكر رؤية المرأة من أهل الجنة، وما في ذلك من متعة ولذة، ورؤية المرأة من أهل الجنَّة أقل درجة من موضع السوط والقوس من الجنَّة؛ لأنَّ امتلاك وحيازة موضع السوط والقوس من الجنَّة يفيد بالتبعية النَّجاة من النار، ولا شك أنَّ دفع الضرر مقدم على جلب المصلحة، ومن هنا فالنفس أشد حرصا على موضع السوط والقوس من الجنَّة، لما يتحقق لها بذلك من نجاة من النار، ثم يأتي بعد الحصول على موضع في الجنة التلذذ بما فيها من نعيم، ومن بين هذا النعيم الحور العين، ثم ختم-ﷺ- بذكر النصيف، فأظهر بذلك أنَّ الدنيا لا تعدل شيئًا إذ وزنت بالآخرة، حتى إنَّها لا تعدل ذلك النصيف الذي تضعه المرأة من أهل الجنَّة على رأسها.

وهذا التدرج قد أكسب الأسلوب رونقًا، وكساه جمالًا، وأفاض عليه فيوضات من السحر الحلال، ما كانت لتتحقق له لو أنَّه عمد مباشرة فنفى خيرية الدنيا في مقابلة الآخرة، فلو أنَّه-ﷺ- قال من أول الأمر: اطلبوا الآخرة فهي خير من الدنيا، لما كان له هذا التأثير الذي أحدثه هذا التفنن في العبارة، والتدرج والترقي في الأسلوب من الأعلى إلى الأدنى، إذ النفس بهذا التدرج تنتقل من حال إلى حال، ومن جهة إلى أخرى، فيحدث لها بهذا الانتقال حيوية، ويسري إليها بهذا الترقي النشاط.

وإذا ما تأملنا في نظم هذا الحديث نجد أنَّ النَّبي-ﷺ- اعتمد على أسلوب التوكيد فقال: (لَرَوْحَةٌ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ، لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا) فاستعمل في كلٍ اللام المفيدة للتأكيد؛ لينتزع بهذا التأكيد ما قد يحيط بالقلوب من شك، أو يعتريها من ريب، لاسيما وأنَّ المقارنة ليست بين الدنيا والآخرة، بل بين الدنيا بما فيها وما اشتملت عليه، وبين صور بسيطة جدة مما اشتملت عليه الآخرة من نعيم ولذة، كموضع السوط والقيد في الجنَّة، والنَّظرةِ إلى امرأة من نسائها، أو التلذذ برؤية نصيفها على شعرها، فكيف لو رأى شعرها؟!، وهذه الصور مع بساطتها إلا أنَّها كما ذكر-ﷺ- تفوق الدنيا بكل ما حوته وما اشتملت عليه، ولذا استعمل النَّبي التوكيد ليظهر أنَّ الأمر جار على الحقيقة، وليس على سبيل التجوز أو المبالغة أو الادعاء.

ونلاحظ كذلك تكراره-ﷺ- لقوله (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) بما يفيده هذا التكرار من تأكيد، وبما يشعر به من امتهان للدنيا وتقليل من شأنها، ولو أنَّه-ﷺ- عدل عن هذا التكرار لربما تُوهم أنَّ هذه الصور

مجتمعة خير من الدنيا وما فيها، لكن هذا التكرار أتى ليفيد أنَّ كل صورة من هذه الصور على حدة خير من الدنيا وما فيها. ولو أنَّه -ﷺ- قال: (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا) لكان كافيًا في تحقيق هذا الغرض وإفادة هذا المعنى، لكنَّه -ﷺ- لم يكتف بأن يجعل أيَّة صورة من هذه الصور المذكورة خير من الدنيا فحسب، بل جعلها خيرًا منها بما اشتملت عليه من زخرف، وما حوته من شهوات ومتع ونعم.

ومن أحاديث هذا الباب ما روي عَنْ أَنَسِ بن مَالِكٍ-ﷺ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ-ﷺ-: (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ)[١].

في هذا الحديث معنيان: **أحدهما**: الإرشاد إلى الزهد في الدنيا، والترغيب في الإقبال على الآخرة، فإنَّ من أعرض عن الدنيا، وأقبل على الآخرة، رُزق فراغ البال، والتنعم، وجمع الشمل، وأتته السعادة من غير تعب، والهناءة من غير شغل، وهذا هو الغنى الحقيقي وإن عدم صاحبه القوت، ومن أقبل على الدنيا وأعرض عن الآخرة شغل بما لا يجزي، وتعب فيما لا يغني، فتزداد الدنيا عنه بعدا لأنَّه لا يصيب منها إلا المقدور، والمقدور لا يغنيه وإن كثر؛ لغلبة الحرص عليه، فيناله الأسف والحسرة على فوت ما لم يُقدَّر له، ومثل هذا العبد فقير وإن ملك الدنيا.

ثانيهما: الإرشاد إلى الإقبال على الله والرجوع إليه والتعلق به دون ما سواه، فإنَّ العبد أسير القدرة، سليب القبضة، يجري عليه القدر، ومن سلم بهذا صار مأخوذًا عن أوصافه، مصروفًا عن نظره إلى أفعاله، معترفًا بعجزه، مقرًّا باضطراره، عالما بافتقاره، ولا يصل إلى تلك المنزلة إلا من كان همه الآخرة، لأنَّ الدنيا حجاب الآخرة، فإذا رُفع حجاب الدنيا عن بصره رأى الآخرة بعين إيقانه، ومن نظر إلى الآخرة شغل عن الدنيا[٢].

---

(١) رواه الترمذي في سننه حديث رقم(٢٤٦٥) جـ٤/ ٢٢٤.

(٢) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لابن أبي إسحاق الكلاباذي، ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط: ١/ ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م، ص٣٣٣.

والفن البلاغي الذي اعتمد عليه هذا الحديث لإبراز التفاوت بين الحالين، والتباعد بين المقامين: مقام من علق قلبه بالله وانشغل به عما سواه، ومقام من كانت الدنيا همه، هو فن المقابلة حيث أتى -ﷺ- بثلاثة معان، ثم قابلها بمثلها، فقال في شأن من كانت الآخرة همه: (جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) وقال في شأن من كانت الدنيا همه: (جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ) والمقابلة بما فيها من جمع بين الأضداد، تزيد المعنى قوة، وتجعل النفس أشد انتباهًا وأكثر تيقظًا، حيث يتجدد النشاط بانتقال النفس من اللفظ إلى ضده، ومن المعنى إلى نقيضه، مما يجعل اللفظ أكثر عذوبة، والمعني أشد ظهورا

وهذا يؤكّد تلك القاعدة الثابتة بلاغيًا، وهي أنَّ الطباق والمقابلة من الأمور الفطرية التي لها علاقةٌ وثيقةٌ ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، فالطباق والمقابلة ينقلان غرض المتحدث ويبرزانه في صورةٍ قويةٍ مؤثرةٍ (١).

وقد دلت تلك المقابلة في الحديث الشريف بما جمعته من معن متضادة- دلت على البون الشديد بين الدنيا والآخرة وأظهرت أوجه التمايز بينهما، مما جعل الخطاب أكثر إقناع وأشد تأثير.

والمتأمل يجد أن الجمل في الحديث مرتبة ترتيًا رائعًا، بحيث ترى كل جملة منها تسلم للتي تليها، فهي كالموطئة لها، والممهدة لنزولها، وهذا بدوره له أثره الواضح في انسياب الكلام وتناسق العبارات، فالجمل آخذٌ بعضها بعنق بعض، دالٌ كل منها على الآخر، فقد قال-ﷺ- في شأن من كانت الآخرة همه (جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) فبدأ بالقلب المتحكم في سائر الأعضاء والمصرف لأمورها، والذي تسخط الأعضاء بسخطه وترضى برضاه، وتقوى بقوته وتضعف بضعفه، وتجمع بجمعه، وتفرق وتشتت بتشتته، ثم حكم لهذا القلب بالغنى وعدم الشتات لأنَّ له همًا واحدًا هو الآخرة، وإذا كان القلب غنيًا مجموعَ الشمل غيرَ مقطع الأوصال، فإنَّ هذا لا شك يكون له أثر في النفس فينالها ما نال القلب من غنى، وجمع للشمل، وعدم تفرق أو تقطع أو حسرة على ما فات من أعراض الدنيا، لأنَّها في حقيقة الأمر لا تنشغل بها، ولذا قال-ﷺ- عقب هذه الجملة (وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ) ثم ذيل

---

(١) ينظر: الصبغ البديعي البديعي د/ أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م، ص٤٧١.

ذلك كله بقوله (وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) وهي جملة تبعث في نفس المؤمن سكينة وطمأنينة ورضا، وتدفعه إلى مزيد من الحرص على الآخرة والإقبال على الله تعالى، لأنَّه سبحانه المالك للدنيا والمدبر لأمورها يعطيها لمن شاء ويمنعها من شاء، ولذا كان التعبير بقوله: (وَهِيَ رَاغِمَةٌ) في موضعه، ومعبرا عن المعنى خير تعبير، ومؤديًا له أكمل أداء، ونلاحظ هنا أنه-ﷺ- لم يقل: وأخذ من الدنيا ما قدر له، كما قال في شأن من همه الدنيا، وإنما آثر التعبير بقوله:(وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) فأبان بهذا التعبير أنَّ من كان عبدًا لله، وكان همه رضاه، أغناه الله به، وذلل له كل شيء، فأتاه كل شيء راغمًا.

ثم قال في شأن من كانت الدنيا همه (جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ) ونلاحظ هنا أنَّه لم يقل: جعل الله فقره في قلبه كما قال في صاحب الآخرة، وإنَّما قال: (جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ) وتلك عبارة وقعها أشد، وأثرها أبلغ، وكأنَّ الفقر قد استولى على القلب حتى فاض هذا القلب بالفقر كما يفيض الوعاء بالماء، ثم لما لم يسع هذا القلب الفقر، ولم يقدر على احتوائه، سيطر هذا الفقر على الجوارح وسائر الأعضاء، فقيدها بأغلاله، وهذا يفسر لك ما تراه من بخلٍ وإقتارٍ وشحٍ يصيب كثيرا من ذوي الغنى واليسار، فإذا رأيت من هذا شأنه فلا تعجب، فهو مع كثرة ماله غلَّه الفقر بأغلاله، وأحاط بأركانه، حتى إنَّ هذا الفقر قد بدا ماثلا أمامه، شاخصًا بين عينيه، ولذا قال الصادق المصدوق (جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ) فهو لم يستول على القلب والأعضاء فحسب، بل تجسد وتشخص وصار بين عينيه، وملازمًا له، يراه حيثما تحول وأينما توجه، ثم قال-ﷺ- (وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ) وأي شمل يجمع لمن كان هذا حاله؟، لا شك أن من مَثَلَ الفقرُ بين عينيه يكون مفرق الشمل، مشتت النفس والفكر، إذ كل ما يعنيه هو الخلاص من هذا الفقر والفرار منه إلى أي جهة كانت، وبأي وسيلة تكون، حتى لو كانت محرمة أو منهيا عنها، ولكن هيهات لهذا المشتت أن يجمع شمله، وهيهات لهذا الفقير أن ينال ما يرجوه من غنى، وهيهات له أن يفر من الفقر، وكيف له ذلك والفقر قابع بين عينيه؟، ثم أضف إلى هذه الحسرة المتمثلة في تشخص الفقر بين عينيه حسرة أخرى عبَّر عنها النَّبي-ﷺ- بقوله: (وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ) ووازن بين هذا وبين قوله فيمن كانت الآخرة همه: ((وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ) تجد المسافة بعيدة والتفاوت شديد.

وهذا الترتيب كما ذكرت جعل الجمل أكثر تناسقًا، وأشد تأثيرًا، وأبلغ دلالة على المعنى المراد، حتى إنك لترى كلا من المعنى واللفظ يتسابقان فيصلان إلى الأذن والقلب في آن واحد، دون أن يحجزهما حاجز، أو يعيقهما عائق، ويحضرني هنا تلك الإشارة للجاحظ، والتي بين من خلالها أن " أجود الشعر ما كان متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، كأنّه قد سُبك سبكًا واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان، أما إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا كان على اللسان عند إنشاد هذا الشعر مؤنة"(١).

ومن الأحاديث كذلك التي تنبه على عظم الآخرة، وتحثُّ على الإقبال عليها، والعمل لها، وعدم التعلق بالدنيا وعَرَضِها، ما رواه البيهقي بسنده عَنْ شَدَّادِ بن أَوْسٍ قَالَ: كَانَتْ خُطْبَةُ رَسُولِ-ﷺ-: " إِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَإِنَّ الآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ يَقْضِي فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، أَلا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ، أَلا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي النَّارِ، وَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَعْرُوضُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَإِنَّكُمْ مُلاقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا بُدَّ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ "(٢).

وقد بدأ النَّبي-ﷺ- الحديث مستعملًا أداة التأكيد (إنَّ)، وفي بعض الروايات قال (ألا إنَّ)، فاستعمل "ألا" المفيدة للتنبيه، و"إنَّ" المفيدة للتأكيد، وقد سرى هذا التنبيه والتأكيد في أوصال الحديث، فنجد أربع جمل متتابعة قد بدأت بهاتين الأداتين، مما يدلنا على أن ما سيلقى من أخبار مما ينبغي أن يصغى وينصت له ويهتم به؛ لما يحويه من معانٍ شريفةٍ وحكمٍ جليلةٍ، وفي بعض الرويات قال-ﷺ-: (يا أيها الناس إنَّ الدنيا عرضٌ حاضرٌ) فبدأ بهذا النداء العام، وكأنَّه-ﷺ- ينبهنا بهذا النداء إلى أن هذه الموعظة ليست خاصة بمن حضر، وإنَّما هي عامة في الأمّة، ومطلب متجدد بتجدد العصور وتعاقب

---

(١) البيان والتبيين ت/ عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. ط:٧/ ١٤١٨ه١٩٩٨م. جـ١/ ٦٦،٦٧.

(٢) رواه البيهقي في السـنن الكبرى، حديث رقم(٥٨٠٨)، ت/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ٣/ ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م، جـ٣/ ٣٠٦. ورواه الطبراني في المعجم الكبير حديث (٧١٥٨) جـ٧/ ٢٨٨.

الدهور، وهذا النداء إلى جانب ما أفاده من عموم، فإنَّه كذلك ينضم إلى الأداتين (ألا وإن) فيفد ما أفادتاه من طلب للإصغاء، ولفت للأذهان حتى تقبل على ما يلقى عليها، ولا شك أنَّ هذه التهيئة للكلام، وهذا التوطيد للخبر، أبلغ أثرًا وأشد عملا في قلب السامع ونفسه، حيث تعمل هذه التهيئة على إفراغ القلب من العلائق والنفس من الشواغل، فيصادف بذلك الكلام قلبًا خاليًا فيتمكن فيه أيما تمكن، ويعمل فيه أيما عمل، ويصادف كذلك نفسًا قد استعدت لتلقيه وتهيَّأت لاستقباله، فتعض عليه بالنواجذ، وتحرص عليه حرصها على كل كريم لديها شريف عندها.

يقول الرازي – رحمه الله- " ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتمَّ وَالكَلَامَ المقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: أزيد، والبعيد بيا فيقال: يا زيد، والغافل ينبه أولا فيقال: ألا يا زيد" (١).

ثم قال-ﷺ- بعد هذا التنبيه والتهيئة والتأكيد: (الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ) وكل كلمة من الكلمات المؤلفة لهذه الجملة تحتاج إلى وقفة ومزيد عناية وتدبر، فتأمل قوله: (عَرَضٌ) واستعماله بصيغة التنكير، وما يوحي به هذا التنكير من تقليل وتحقير، وما يدل عليه من خسة وانعدام للقيمة، وما تفيده كلمة (عَرَضٌ) بوضعها اللغوي من الزوال وعدم البقاء. يقول الراغب: "والعَرَضُ: ما لا يكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلّمون العَرَضَ لما لا ثبات له إلّا بالجوهر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عَرَضٌ حاضرٌ، تنبيها أن لا ثبات لها" (٢). ثم وصفه لهذا العرض بقوله: (حَاضِرٌ) أي: عاجل محسوس، وما يفيده هذا الوصف من انقطاع هذا العرض، ولو أنَّه-ﷺ- اكتفى في وصف الدنيا بكونها عرضا لكفى ذلك في الدلالة على انقطاعها وزوالها، ولكنَّه بالغ فوصف العرض بأنَّه حاضر، أي: عاجل ومنقطع، ثم انظر في قوله: (يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ) وهل لا يُنتفع من الدنيا بشيء سوى الأكل حتى يجعل مدار الدنيا عليه ومردها إليه؟ لا شك أنَّ في الدنيا منافع شتى، لكنه اختصر كل المنافع وحصرها

---

(١) مفاتيح الغيب، جـ٢٥/ ٢٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ، دمشق بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ، ص٥٦٠.

في الأكل؛ لينبه على أنَّ الدنيا بما فيها وما تحويه من منافع، وما تشتمل عليه من ملذات مصيرها إلى ما يصير إليه الطعام بعد أكله، وفي هذا ما فيه من التحقير لشأنها، أو لينبه على أن الدنيا بكل ما فيها من متع وزخارف ليس للعبد منها إلا ما ينتفع به وفي مقدمتها مطعمه الذي يطعمه، ولينبه على أن من حاز الدنيا ومن لم يجد منها إلا مأكله هما في حقيقة الأمر سواء؛ لأنَّ كلا منهما سيترك ما خوَّله وراء ظهره، ثم سوى في هذا الأمر بين البر والفاجر؛ لينبه على أنَّها لحقارتها لم يجعلها الله لأوليائه ويمنعها أعداءه، وإنما جعلها كلأً مباحًا وعرضًا مستباحًا.

ثم انتقل -ﷺ- من الحديث عن الدنيا إلى الحديث عن الآخرة فقال: (وَإِنَّ الْآخِرَةَ وَعْدٌ صَادِقٌ يَقْضِي فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ) فبدأ كذلك بالتأكيد؛ لينفي به أية شبهة قد تداخل العبد من هذ اليوم وذلك الوعد، وإذا كان قد وصف الدنيا بأنَّها (عَرَضٌ حَاضِرٌ) فإنه وصف الآخرة بأنها (وَعْدٌ صَادِقٌ) ولك أن تقارن بين الوصفين لترى ما يفيده الأول من تأكيد على الزوال والانقطاع، وما يفيده الثاني من تأكيد على التحقق والوقوع، وبذا يظهر لك ما بين الوصفين من اختلاف بنفس الدرجة التي بين الدنيا والآخرة من تفاوت واختلاف، ثم بتدقيق النظر في الوصفين يظهر لنا لكل من الدنيا والآخرة وصفًا جديدًا اكتسبته كل منهما من الوصف المذكور للأخرى، ذلك أن الحديث هنا فيه مقابلة وموازنة بين الدنيا والآخرة، وعليه فإذا كان قد وصف الدنيا بأنها عرض حاضر، فإن هذا يفيد بالفحوى إثبات صفة للآخرة عكس تلك الصفة المثبتة للدنيا، فيفهم المخاطب أن الآخرة باقية غير منقطعة، وإذا كان قد أثبت للآخرة أنها وعد صادق، فإن هذا يفيد بالفحوى إثبات صفة للدنيا عكس تلك الصفة المثبتة للآخرة، فيفهم المخاطب أن الدنيا وهم خادع كاذب، ولعل هذا من الاحتباك، فتلك الصفات وإن لم يُنص عليها في الحديث، إلا إنها تستنبط من ألفاظه وتفهم من فحواه.

و إسناد الصدق للوعد "هو من الإسناد المجازي، وصف الوعد بما هو من سببه، أي الله صادق في وعده، ثم المراد بالوعد الموعود هو الأجل المسمى " (١) ووصفه بالصدق دلالة على تحققه وثبوته ووقوعه

ثم قال-ﷺ- (يَقْضِي فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ) يقول العلامة الهروي: " (وَيَقْضِي) أَيْ: يَحْكُمُ (فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ) أَيْ: مُمَيِّزٌ بَيْنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ" (٢)

ويفاد مما ذكره أن هذه الجملة جاءت في مقابلة قوله في شأن الدنيا: (يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ) فإذا كانت الدنيا كلأ مباحًا وحمى مستباحًا لكل من البر والفاجر، فإن أمر الآخرة ليس كذلك، إذ يحكم فيها ملك قادر، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وفي التعبير بقوله: (مَلِكٌ قَادِرٌ) ما يدل على تصرفه في الأمور وحكمه فيها بما شاء وكيف شاء، وقدرته على إنفاذ حكمه وإيقاع أمره. والمَلِكُ: هو المتصرّف بالأمر والنّهي فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا ننسى هنا هذا السجع الناتج عن توافق الفواصل بين الكلمات(حاضر، الفاجر، قادر) وما أشاعه من موسيقى وما أضفاه على الجمل من تناغم ساعد على تهاديها بلا جفوة أو نفور بينها، وهذا بدوره جعلها طيعة للسان مطربة للآذان، وتلك وسيلة أخرى من وسائل جذب الانتباه لإقرار المعاني في النفوس تضاف إلى ما سبقها من وسائل التنبيه.

ثم قال-ﷺ- (أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي النَّارِ) فانتقل بهذه الجملة انتقالا سريعًا من الموازنة بين الدنيا والآخرة للموازنة بين أحوال الآخرة، فضرب بهذا الانتقال صفحًا عن الدنيا، وجعل الكلام خالصًا للآخرة عناية بشأنها وما فيها من أحوال، فوازن بين الجنة والنار فجعل الخير كلَّه في الجنَّة، وجعل الشرَّ كلَّه في النَّار، وأكد ذلك باستعمال أداة التنبيه " ألا" وأداة التأكيد "إنَّ" و استعمال " كلَّه" المفيدة للشمول والعموم واستعمال كلمة (بِحَذَافِيرِهِ) المفيدة لغاية الاستقصاء الذي لا استقصاء بعده، وهذه الأدوات مستعملة في الموضعين على حد سواء.

(١) ينظر شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى (الكاشف عن حقائق السنن) ت: د. عبد الحميد هنداوي مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة – الرياض، ط: ١/ ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، جـ١٠/ ٣٠٤.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي، جـ٨/ ٣٢٦٥.

وبعد أن بين تلك الأحوال المختلفة أرشد إلى سبيل النَّجاة، فقال (وَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَعْرُوضُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَإِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا بُدَّ) فأرشد إلى العمل وإلى الإخلاص فيه، وفي التعبير بقوله: (وَاعْلَمُوا) والتأكيد بأنَّ في قوله: (أَنَّكُمْ) واستعمال اسم المفعول (مَعْرُوضُونَ) بدلا من الفعل المضارع تعرضون، ما يؤكد على ثبوت العرض وتحققه وأنَّه واقعٌ لا محالة، حاصلٌ لا ريب، ولم يكتف-ﷺ- بهذا التأكيد الذي تنضح به كل ألفاظ الجملة، بل أضاف إلى ذلك تأكيدًا صريحًا، ليقيم الحجة ويقطع كل سبل الريب، فقال-ﷺ- (وَإِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا بُدَّ)، وتأمل ما اشتملت عليه كذلك هذه الجملة من أساليب التأكيد من التعبير بإنَّ والاسم ملاقوا بدلا من تلقون، واستعمال لفظ الجلالة لإدخال المهابة في النفوس، ولفظ ربكم مضافًا إلى ضميرهم وما في ذلك من تلطف بهم، وإرشاد إلى الاعتراف بنعمه عليهم، وما يجب عليهم من شكر هذه النعم، وتذييل العبارة بقوله: (أبدًا) فزاد به المعنى تأكيدًا على تأكيده، وقوة فوق قوته، وكل هذا الحشد لوسائل التوكيد تؤكد لنا مدى حرصه -ﷺ- الشديد على تبليغ رسالة ربه، وإقامة الحجة على الخلق، وإلى جانب ذلك فإنَّ هذا الحشد لوسائل التأكيد يدل على حرصه الشديد على أمَّته، وحدبه عليهم، فيجلي لهم الأمر، ويدلهم على سبيل النجاة، ويؤكد عليهم سلوكه حتى لا تجتذبهم الأهواء وتتخطفهم الشهوات.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنَّ البحث في الحديث النبوي الشريف له متعة خاصة؛ لما يحويه من حكمة بالغة تجد فيها القلوب راحتها، والنفوس أنسها وسعادتها، ولم لا وهو وحي يوحى ممن أحاط علمًا بالنفوس، واطلع على خبايا القلوب، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

وقد عشت من خلال هذا البحث المتواضع مع أحاديث النَّبي عن الدنيا، ولم استقص تلك الأحاديث، وإنَّما عرضت لنماذج منها، محاولًا قدرة الطاقة إظهار ما اشتملت عليه من معان، وما حوته من أسرار ودقائق، ولا أقول إني بلغت في ذلك الغاية، لكنه جهد المقل واجتهاد العاجز، ولا يزال الباب مفتوحًا لمن يجمع كل الأحاديث الواردة في شأن الدنيا، ويجتهد فيها أفضل مما اجتهد، ويستخرج من معانيها أكثر مما استخرجت، وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

أولًا: أحاديثه-ﷺ-عن الدنيا فيها تعليم وإرشاد ليدرك العبد حقيقتها، ومدى خطرها، فلا تصرفه عما هو مقبل عليه، ولا تشغله عما هو راحل إليه.

ثانيًا: المتأمل يجد أنَّ هذه الأحاديث غنية بالوسائل التعبيرية، والنكات البلاغية، والخصائص الأسلوبية، وغير ذلك من ألوان البيان.

ثالثًا: اعتمد النَّبي -ﷺ- أكثر ما اعتمد في هذه الأحاديث على ضرب الأمثال، بما تمتاز به من إيضاح الغامضات، وكشف المبهَمَات، وبما لها من أثر في تقرير المعنى في نفوس السامعين.

رابعًا: لم يكن النَّبي -ﷺ- يلقي الخبر مباشرة، ولم يكن يفصح عن مراده من أول الأمر، بل يهيِّئ الأذهان باستعمال بعض الأدوات التي تلفت الانتباه، وتحفِّز العقول للإصغاء، كالاستفهام، والنداء، والقسم، والتأكيد، والاستفتاح بألا، والتكرار، إلى غير ذلك من الوسائل والأساليب، ولا شك أن هذه التهيئة للكلام، وهذا التوطيد للخبر أبلغ أثرًا، وأشد عملا في قلب السامع ونفسه.

خامسًا: لم يعتمد النَّبي -ﷺ- في هذه الأحاديث على طريقة التلقين وإلقاء المعلومات المباشرة للمتلقي؛ فإن مثل هذه الطريقة ربما أدَّت إلى انصراف المخاطب وعدم التفاته إلى ما يلقيه المتكلم من خطاب، لكنَّه-ﷺ- اعتمد على أسلوب الحوار، فصار بذلك الخطاب مشاركة بينه وبين سامعيه، ولا شك أنَّ للحوار أثرًا كبيرًا في استمالة المخاطب فهو وسيلة فعالة من وسائل الإقناع وإقامة الحجة.

سادسًا: كثيرًا ما يستعمل النَّبي -ﷺ- بعض الوسائل التي تظهر حرصه على السامع، ورفقه به، وعطفه عليه، كأن يمسك بيده، أو يأخذ بمنكبه كما فعل مع ابن عمر-رضي الله عنه-، وهذه وسيلة من أنجع وسائل التربية، وطريقة من أبلغ طرق الدعوة.

سابعًا: المتأمل يجد أنَّ الجمل في هذه الأحاديث مرتبة ترتيًا رائعًا، بحيث ترى كل جملة منها تسلم للتي تليها، فهي كالموطئة لها، والممهدة لنزولها، وهذا بدوره له أثره الواضح في انسياب الكلام وتناسق العبارات، وتلك سمة عامة في البيان النبوي الشريف.

ثامنًا: عادة ما يحشد النَّبي -ﷺ- الكثير من أدوات التوكيد وهذا التأكيد له غايات عديدة، فهو ينتزع ما قد يحيط بالقلوب من شك، أو يعتريها من ريب، أو ليظهر أن الأمر جار على الحقيقة، وليس على سبيل التجوز أو المبالغة، أضف إلى ذلك أنه يدل على حرصه -ﷺ- الشديد على تبليغ رسالة ربه، وإقامة الحجة على الخلق.

ثبت المصادر والمراجع

١- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط:٧، ١٣٢٣هـ.

٢- أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، د/ صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، ط:١/ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م.

٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:٩/ ١٣٩٣ هـ.١٩٧٣م.

٤- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى ١٤٢٤هـ.

٥- بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لابن أبي إسحاق الكلاباذي، ت: محمد حسن محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان، ط:١/ ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٦- البيان والتبيين ت/ عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. ط:٧/ ١٤١٨ه١٩٩٨م.

٧- البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣هـ.

٨- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩- التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، د/ علي علي صبح، المكتبة الأزهرية، ط:١/ ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

١٠- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ٧/ ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١١- حاشية السيوطي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط:٢/ ١٤٠٦- ١٩٨٦م.

١٢- الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، دار: اقرأ، ط:١/ ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١٣- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، ت/ محمود محمد شاكر- مطبعة المدني بالقاهرة، ط: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٤- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان البكري، ت: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط:٤/ ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

١٥- رسائل الجاحظ، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.

١٦- سنن ابن ماجة ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - البابي الحلبي.

١٧- سنن الترمذي، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م.

١٨- السنن الكبرى للبيهقي، ت/ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:٣/ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

١٩- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى(الكاشف عن حقائق السنن) دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠- شرح سنن أبي داود لابن رسلان المقدسي، دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، ط:١/ ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.

٢١- شرح صحيح البخاري لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط:٢/ ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٢٢- شعب الإيمان للبيهقي، ت: د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بالهند، ط:١/ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٣- الصبغ البديعي البديعي د/ أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي ١٣٨٨ه. ١٩٦٩م.

٢٤- صحيح البخاري دار طوق النجاة، ت: محمد زهير بن ناصر (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ط: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٥- صحيح مسلم ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٢٦- الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري، ت: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.

٢٧- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت/ مكتبة دار التراث، ط:الثالثة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٢٨- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق. ت/ محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجبل. بيروت.

٣٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر، ت: مجموعة من المحققين، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩ه.

٣١- في الحديث الشريف والبلاغة النبوية د/ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط:١/ ١٤٣٢ه٢٠١١م.

٣٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط: الأولى، ١٣٥٦ه.

٣٣- المثل السائر لابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

٣٤- المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية-ﷺ- من صحيح الإمام البخاري، لشمس الدين السفيري، ت: أحمد فتحي عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٣٥- المستدرك للحاكم، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١/ ١٤١١ه ١٩٩٠م.

٣٦- مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٧- المعجم الكبير للطبراني، ت/ حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط:٢.

٣٨- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٩- مفتاح العلوم للسكاكي، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

٤٠- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ، دمشق بيروت، ط:١/ ١٤١٢هـ.

٤١- المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١ه. ٢٠٠٠م.

٤٢- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي، ت: مجموعة من المحققين دار ابن كثير، دمشق، ط: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، ت: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي.

٤٤- المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:٢/ ١٣٩٢ه.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

الملخـــص ١٧٥٥

المقدمـــة ١٧٥٧

تمهيد: من سمات البيان النبوي في أحاديثه-ﷺ- عن الدنيا. ١٧٦٠

المبحث الأول : هوان الدنيا على الله تعالى ١٧٦٢

المبحث الثاني : الزهد في الدنيا سفينة النجاة ١٧٧٤

المبحث الثالث: تعس عبد باع دينه بدنياه ١٧٨٤

المبحث الرابع: والآخرة خير وأبقى ١٧٩٣

الخاتمة ١٨٠٣

ثبت المصادر والمراجع ١٨٠٥

فهرس موضوعات البحث ١٨٠٩